www.kotobarabia.com

رواية

لوليتا

www.kotobarabia.com

خليل حنا تادرس

فلاديمير نابوكوف

لُولِيتَا

تُحْفَة فْلادِيمير نَابُوكُوفْ الرَّائِعَة

خليل حنا تادرس

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

القسم الأول .... - ٤ -

القسم الثاني .... - ١٥٦ -

القسم الأول

(١)

لوليتا..

يا نور حياتي ونار صدري.. يا خطيئتي وروحي.. أيتها النيران المتوقدة في عروقي.؟ يا من تهزج روحي باسمك.. (لو – لي – تا).

إن طرف اللسان يقفز ثلاث مرات على الحلق فيصطدم ثلاث مرات بالأسنان لو – لي – تا.

إنها لولو في الصباح إذ تهب واقفة خارجة من سريرها بجسمها الضئيل القصير.

إنها لولا في فساتينها القصيرة.. وإنها دولي في المدرسة. وإنها دولوريس في سجل النفوس.. أما بين ذراعي فقد كانت لوليتا ذات الاثني عشر ربيعا.

هذه يا حضرات القضاة هي الوثيقة الأولى المؤيدة للتهمة وهذه هي الاعترافات لا لتقاضوني على أساسها.. إنما

لأعرض فيها قبل كل شيء لعبة الأقدار معي.. فانظروا إلى القصة من هذا الضوء.

* * * *

(٢)

ولدتُ في باريس عام ١٩١٠ وقد توفيت والدتي فعشت مع شقيقتها الكبرى (سيبل) التي أغرم بها أبي ذات ليلة ثم نسي الأمر بعدئذ.

كانت خالتي ذات عينين زرقاوين وبشرة شاحبة بلون الشموع وكانت تقرض الشعر وذات مزاج شاعري متشائم.. ولقد توفيت بعد عيد ميلادي السادس عشر.

والواقع أنني كنت في طفولتي موضع التدليل من الجميع فهناك مثلاً أميرة روسية مفلسة كانت تشتري لي الحلوى.. وكان أبي العزيز يأخذني في نزهات بحرية بالقارب ويقرأ لي صفحات من دون كيشوت والبؤساء وكنت أشعر بالسعادة إذ أسمع خادمات الفندق يروون الأقاصيص عن صديقاته وعشيقاته الكثيرات التي كن دوما من النساء الجميلات.. أما في المدرسة فقد كنت ناجحا في كل شيء.

ولست أذكر تجربة جنسية واضحة المعالم حدثت لي قبل أن أبلغ الثالثة عشر وألتقي بالصغيرة (آنابيل) سوى حديث جدي مثير للغاية جرى لي مع صديق أمريكي عن المغامرات الغرامية التي تجري بين خمايل الزهور وسوى انفعال جنسي عضوي كلما أخذت أرى الصور العارية.

ولقد كان أبي يحدثني بلهجته المرحة النشوى عن الجنس، بما قدر أنه يكفيني في مراهقتي، وذلك قبل أن يرسلني إلى الكلية الثانوية في ليون..

* * * *

(٣)

كانت (آنابيل) مثل ذات نسب مختلط إلا أنني لم أعد أذكر ملامحها بذلك الوضوح الذي كنت أتذكرها به قبل أن أعرف لوليتا.

هناك نوعان من الذاكرة البصرية أحدهما يتيح للإنسان أن يتذكر به مخلوقًا ما، وأنت مفتوح العينين كما كنت أفعل لأرى في ذاكرتي آنابيل ببشرتها العسلية وذراعيها النحيلتين وشعرها الكستنائي وأهدابها الطويلة وفمها الكبير.

أما النوع الآخر للذاكرة تسترجع به صور الناس وأنت مغلق العينين فترى في بصيرتك الداخلية الصورة الوجدانية لمن تتذكر.. تراه كطيف ضئيل بألوان طبيعية وهكذا كنت أجد اوليتا.

وكانت آنابيل تصغرني بأشهرٍ معدودات وكانت تعيش مع أبيها وأمها (وهما صديقان لخالتي) في فيلا قريبة من الفندق. ولا أذكر كم كنت أبغضهما. فقد كانت الأم متزمتة وكان الأب أصلعا معروفًا.

أما آنابيل فقد كانت تماثلني وتماثل الأفراد الذين أشرفوا على فجر مراهقتهم من حيث الشعور (بتمرد) الحيوان وبيقظته في جسد كل منا..

ولقد وقعنا في حب بعضنا بعضا حبا جارفًا يائسا دونما استحياء أو خجل.. وأقول يائسا لأننا كنا تحت رقابة صارمة فلا يسمح لنا بالابتعاد معا عن مرمى ومسمع أهلنا فما اختلينا إلا سرقة وليلاً في حديقة ديرها في حين أن صبية الشوارع كانوا يجدون مائة فرصة مناسبة لإشباع رغبة الامتلاك.

وحيثما كنا نذهب إلى الشاطئ برفقة أهلينا كنا نبتعد عنهم بأقصى قدر مسموح وننتهز كل فرصة مباركة لنلتقي ببعضنا ونتبادل الملامسات المحمومة.

فكانت تدخل يدها تحت الرمل وتزحف بها نحوي حتى تلامس أطراف جسدي بأصابعها، وفي بعض الأحيان كانت ساقها تقوم برحلة حذرة بطيئة لتلامس ساقي، وكم كنا نبتهج عندما تبعث الصدفة بصغار يبنون تلالاً من الرمل تحجبنا عن أعين أهلينا وتتيح لنا قبلات نرشف فيها رضاب بعضنا بعضا.

إن هذه الملامسات المبتورة كانت تسبب لجسدينا إرهاقًا وهياجا بالغين ما كانت حتى مياه البحر الزرقاء لتستطيع تفريج كربتنا وإطفاء اللظى الذي يستمر في جسدينا.

ولست آسفًا على ما أضعته من كنوز ذكرياتي أكثر من أسفي على صورة لي ولها بين أفراد العائلتين التقطت في المقهى الساحلي في اليوم الأخير من ذلك الصيف المشئوم وقبيل لحظات من المحاولة النهائية التي قمنا بها لمصارعة القدر.

والحكاية هي أننا استطعنا التحجج بالذهاب إلى بيت الخلاء وأن نهرب من المقهى إلى الشاطئ، حيث عثرنا على بقعة رملية معزولة عن الأنظار، وهناك في ظل بنفسجي من الصخور الحمراء المحيطة بتلك البقعة على شكل كهف طبيعي قمنا بوصلة مختصرة من المعانقات والمداعبات الجريئة التي لم يكن علينا فيها من شاهدٍ سوى نظارة شمس نسيها صاحبها المجهول على الرمال.

وما لبثت أن جثوت على ركبتي، ولكن في الوقت الذي كنت أوشك فيه على امتلاك حبيبتي خرج من البحر رجلان ملتحيان كانا يستحمان وصعدا إلى الشاطئ وهما يصيحان بعبارات الاستحسان والتشجيع الهازئة.

وبعد أربعة أشهر توفيت آنابيل بالتيفوس في جزيرة كورفو اليونانية.

* * * *

(٤)

إنني أقلب ذكرياتي البائسة بلا رحمة متسائلاً طيلة الوقت عما إذا كان التصدع في حياتي قد بدأ في ذلك الصيف السحيق، أم أن شوقي الشديد إلى تلك الطفلة كان أول طريقة على فرديتي الانعزالية الوراثية.

وإنني إذ حاول أن أحلل نوازع شهواتي ودوافعي وأعمالي فإنني أستسلم إلى نوع من الخيال المتداعي نحو الماضي، وهو خيال يغذي ملكة المناقشة بما لا يحصى من العوامل والأسباب والاحتمالات، ليجعل من ذلك الماضي شيئًا معقدا يثير هوسي ولكنه يقنعني في النهاية بأن قضيتي مع لوليتا قد بدأت بآنابيل بطريقة سحرية مشئومة.

إنني أعرف كذلك بأن الصدمة التي سببتها وفاة آنابيل قد عززت التشتت النفسي الذي أصابني ذلك الصيف المشئوم المفعم بالكبت، وجعل من ذلك التشتت عقبة دائمة في طريق أي غرام صادفته في سنوات شبابي الباردة.

ذلك لأنني ظللت أشعر حتى بعد مرور زمن طويل على وفاتها بأن ذكراها تلاحقني وتحاصرني، وتنفذ إلى من خلال ذكرياتي عن ذلك التماثل العجيب بيننا حتى في الصدف.

إيه يا لوليتا هل أحببتني هكذا!

لقد أبقيت لختام قصة آنابيل رواية خبر الموعد الأول الفاشل بيننا، في ذات ليلة استطاعت أن تخدع العيون الساهرة في عائلتها فالتقينا على بلاطة تحت ظل خيمة (الليموزا) وكنا نستطيع أن نرى من بين أغصانها الداكنة النوافذ المتألقة بالضوء حيث (الأعداء) مشغولون بلعبة (البريدج).

كانت آنابيل ترتجف وتهتز عندما كنت أقبلها على طرف شفتيها وعلى لُحمة أذنها الدافئة.. وكانت السماء صافية يلتمع فيها عنقود من النجوم التماعا خفيفًا خلال أشباح أوراق الليموزا الحادة، واستطعت أن أرى وجه آنابيل بوضوح إذ كان يتألق بضوء خفي.

كانت تعاونني في جلستها فكان رأسها ينحني نحوي بحركة ناعسة ناعمة كلما شعرت وهي في غمرة نشوتها بما يدفعها إلى تقبيلي، بينما كانت ساقاها الدافئتان تطبقان على معصمي وتضغطان عليه وتضغطان عليه لتنفجرا من جديد.

أما فمها المرتجف المتوتر فكان يرسل أنفاسا محترقة تنم عما كان يعتلج فيها من ضنى كانت تحاول أن تفرج عنه

بأن تفرك شفتيها الجافتين بشفتي ثم تبتعد بوجهها عني وتقذف جدائلها إلى الخلف بانتفاضة متشنجة من رأسها، ثم تعود من جديد بنظرات غائمة وتتركني أرتشف رضابها.. وفي غمرة هذه النشوة كنت أشعر بكرم يدفعني لأن أهبها شيئًا.. قلبي – عنقي - أحشائي.. وهي تمسك بيدها البضة بوحش شبقي.

وإنني لأذكر عبق رائحتها.. مزيج من رائحة امرأة وطفلة.. لقد أسكرني ذلك العبير وحملني على أن أهم بالخطوة التالية.. وهنا اهتز الدغل القريب وفرقعت الأعشاب فابتعدنا مبهورين مذعورين عن بعضنا بعضا والشبق يكوينا. وعندما أدركنا أن مصدر هذه الجلبة كانت هِرة تائهة في الحديقة سمعنا صوت أمها يناديها بلهجة متصاعدة القوة.. فتسللت من خميلة الليموزا عائدةً.

لقد ظلت ذكرى هذه الجلسة تحت خميلة الميموزا تلاحقني كاللعنة، ظللت دائما أشعر بشبح تلك الفتاة الصغيرة بأطرافها النحيلة ولسانها الدافئ وهو يلاصقني، ولم أستطع أن أفك هذا السحر عني إلا بعد أربعة وعشرين عاما يوم أعدت إلى الحياة آنابيل في جسد لوليتا وشخصها.

(٥)

كلما رجعت بذاكرتي إلى الخلف بدت لي هذه الأيام وكأنها تتناثر حطاما أمامي.. وفي تلك الأيام كنت في علاقاتي الجسدية مع النساء عمليا وساخرا ونشيطًا فكنت أجد كفايتي أثناء دراستي بلندن وباريس في بائعات الهوى.

وفي بادئ الدراسة نويت أن أحصل على شهادة في علم النفس كما يفعل الكثيرون من المفتقرين إلى المواهب، ولكني وجدت نفسي أكثر اندفاعا من هؤلاء؛ فانتقلت إلى دراسة الأدب الإنجليزي تلك الدراسة التي ينتهي فيها الكثيرون من الشعراء الخائبين كأساتذة يدخنون الغليون ويرتدون الألبسة الخشنة.

وقد تنقلت من وظيفة قلمية إلى أخرى مستثمرا أصدقائي مع الأخصائيين الاجتماعيين والمحللين النفسانيين كيما أظهر معهم المياتم والإصلاحات؛ حيث كنت أرى في وجوه الفتيات الشاحبات ذوات الأهداب المسدلة ما يذكرني بصورة تلك التي تلازم أحلامي.

هنا أريد أن أبسط الفكرة التالية التي خلصت إليها من تعرفي على عالم الصغيرات والمراهقات.

هناك فتيات بين سن التاسعة والرابعة عشر يظهرن لعين بعض الرجال المسعورين أكبر مما هن بضعفهن.. فيتكشف لهذا النوع من الرجال من طبيعتهن الحقيقية التي ليست بالطبيعة الإنسانية، إنما هي طبيعة شهوانية مسعورة.. طبيعة جهنمية إبليسية.. ولهذا فقد أطلقت على هذا النوع من الصغيرات اسم الحوريات المسعورات بالشبق).

وقد يتساءل القارئ.. هل جميع الفتيات بين سن التاسعة والرابعة عشرة من (الحوريات المسعورات)؟

الجواب كلا بالطبع وإلا جئنا أنا وأمثالي العائشين في أسرة واحدة، الذين يكتشفون المهيجات في بعض تلك الفتيات ويستذرفوني نوعهن.

إن هناك شيئًا خفيا يفرق بين (الحورية المسعورة) وغيرها من الصغيرات.. إنه شيء يشعر به الخبير بهن وبسحره الجنسي الخفي فيكتشف الواحدة منهن من بين رفيقاتها الكثيرات. فالواقع أن نسبة (الحوريات المسعورات) هي قليلة جدا بين الفتيات، وإنه ليقتضي منك أن تكون فنانًا أو مجنونًا أو فريسة السويداء المزمنة أو رجلاً تضطرب في عروقه نيران شهوة آكلة حتى تستطيع أن تتعرف على

(الحورية المسعورة) في الحال من بين رفيقاتها اللواتي يظهرن للشخص العادي متشابهات قلبا وقالبا معها.

إن (الحورية المسعورة) إنما هي شيطان في ثياب طفل ملاك، وإنها لتختلط برفيقاتها فلا يشعرن بما تمتاز عنهن، ولا هي تشعر بتأثيرها المزلزل الكاسح.

أما وأن فكرة الحدود الزمنية تلعب مثل ذلك الدور السحري في هذا الأمر فإنه لا يجب على القارئ أن يدهش، إذ يعلم بأنه يجب أن يكون هناك فارق في السن قدره ثلاثون أو أربعون عاما بين (الحورية المسعورة) والرجل، حتى يقع هذا الأخير تحت سحر (الحورية المسعورة)؛ فالقضية هي قضية تكيف مع البؤرة وقضية مسافة معينة، تطرب العين الباطنية نقهرها إذ تذلها باجتيازها لها، ثم إنها أخيرا قضية تناقض معين يدركه الذهن، ويلاحظه بحواسه الداخلية وفي غمرة لهثات من الغبطة العارمة.

فعندما كنت طفلاً وكانت آنابيل العزيزة طفلة لم تكن تلك الحبيبة (حورية مسعورة) وفي نظري فقد كنت أشعر بأنني نظيرها المتساوي معها، العانس وإياها على نفس تلك الجزيرة الرملية المسحورة.

ولكنني اليوم في عام ١٩٥٢ وبعد مرور تسعة وعشرين سنة على تلك الفترة، أظن بأنني أستطيع أن أتعرف فيها على (الجنية) الأولى التي أقحمت حياتي.

لقد أحببنا بعضنا حبا فجاء سابقًا لأوانه وبضراوة غالبا ما تدمر حياة المراهقين، وإذ كانت قوتي قد أنقذت حياتي من الدمار فإن السم قد وصل إلى الجرح الذي أحدثه حبها في كيان حياتي فظل جرحا مفتوحا مقروحا إلى الأبد. وسرعان ما وجدتني بعد إصابتي به أنضج وأترعرع وسط حضارة تسمح لرجل في الخامسة والعشرين أن يغازل فتاة في السادسة عشرة من عمرها، ولكنها لا تسمح له بمغازلة فتاة في الثانية عشرة من عمرها.

وهكذا فلم تكن المخلوقات النسائية اللواتي كنت أسمح لنفسي بمقارنتها، أكثر من وسائل ووسائط مسكنة ملطفة.

وإذا كنت أستطيع الاعتقاد بأن المشاعر الانفعالية التي كنت أستقيها من الفسق والزنا كانت إلى حدٍ كبير ذات المشاعر التي يعرفها البالغون، إذ يتواصلون مع البالغات في ذلك الإيقاع الرتيب الذي بهر العالم ويجدد الحياة فيه. فإن الفارق بيني وبينهم يكمن في أن أولئك السادة لم يتذوقوا كما

فعلت شيئًا من غبطة أخرى حادة متوقدة تبعث نشوة أبلغ مما تبعثه نشوة الوصال بين ذكر وأنثى متماثلين، وهكذا كانت أحلامي.

لقد أدركت هذه الحقيقة الآن، أما عندما كنت في العقد الثالث وفي مطلع العقد الرابع فإنني عجزت عن أن أفهم كربي، فبينما كان جسدي يعرف إلى من يحن ويتوق، كان عقلي يرفض الاستجابة لتوسلات جسدي ويرفض مطاوعته على تفريج كربه، فكان الخوف والخجل يفترساني أحيانًا وكان التفاؤل المتهور يسم تصرفاتي أحيانًا، وكانت المحرمات الاجتماعية الأخرى تأخذ بخناقي وترهقني. فإذا استشرت المحللين النفسيين وعدوني دوما بالشفاء من حالتي.. ووعدوني دائما بتحرر مزعوم مما زعموا أنه شهوات كاذبة. أما أنا فلم أكن أرى موضعا وأداة لإطفاء شبقي سوى نظريات آنابيل في السن والمظهر؛ فكانت صورهن تتماك أحلام يقظتي كنذير بجنون وشيك.

وهنا أستسمح القارئ في أن أذكره بأن قانون اليافعين والشباب الصادر عام ١٩٣٣ في بريطانيا قد فسر تعبير (الطفلة اليافعة) بأنها الطفلة التي تجاوزت الثامنة، إلا أنها لم

تتجاوز الرابعة عشرة. أما في ولاية ماساشوسيتس الأمريكية فإن القانون يعتبر القاصرة فتاة بين السابعة والسابعة عشرة، وذلك فيما يتعلق بما قد تتعرض له الفتيات من المنحطين والفاسدين.

وأذكر أن (هير برافتون) الكاتب المرموق قد أقام الدليل على أن (راحاب) كانت عاهرة محترفة؛ عندما كانت في العاشرة.

إنني أستطيع أن أسوق الكثير من الشواهد التاريخية على اضطرام الجنس والشهوة في بعض القاصرات، وعلى أنهن تصرفن تصرف النساء البالغات.. كما أن هناك ما يحصى من الزيجات في المشرق حيث يتزوج رجل في الثمانين قاصرة لا تعدو العاشرة.

ثم ألم يأتك خبر الشاعر الإيطالي العبقري دانتي؟ لقد وقع دانتي في غرام بياتريس وهي لم تزل في التاسعة يافعة صغيرة رآها عام ١٢٨٤ متجملة متأنقة معطرة في حفلة خاصة دعى إليها في فلورنسا.

أما (بترارك) فقد شغف شغفًا جنونيا بالصغيرة لور في الثانية عشرة من عمرها، تقفز وتلعب فوق سهول جبال فوكلوز.

لقد حاولت أن أكون إنسانًا صالحا.. وأستطيع أن أقول عن نفسي (لقد حاول همبرت أن يكون عن حق صالحا مفلحا فلم يكن للقاصرات اليافعات العاديات، إلا أعمق الاحترام وما كان ليقدم على أن تمس طهارتهن وبراءتهن، مهما كانت ظروفه مواتية، ولكن قلبه كان في الوقت ذاته يتحرك ويتلظى عندما تقع عيناه بين لفيف من القاصرات البريئات، على طفلة جهنمية مثيرة بعينيها البارقتين وشفتيها الشهوانيتين وسحرها الباطني المثير.. طفلة يعاقبك القانون بالسجن عشر سنوات لمجرد أن يثبت عليك أنك تنظر إليها نظرة فاجرة.

وهكذا مضت حياتي. كنت دائما قادرا على أن أقارب المرأة الناضجة، ولكن القاصرة الشهوانية هي التي كنت أشتهيها وأحن إليها.

وهكذا كنت أخفي هذا الحنين بأن أذهب إلى الحدائق العامة حيث تلعب الفتيات، وحيث لابد أن توجد بينهن

(حورية مسعورة) أتأملها وأسترق النظر إلى مكوراتها ومدوراتها ولحم ساقيها البض، وهي تقفز وتدور لاهية عابثة غير عالمة باللهب الجهنمي الذي يفترس أعصابي..

* * * *

(٦)

كثيرا ما كنت أتساءل: ما الذي يحدث لتلك (الجنيات المسعورات) بعد ذلك!

ألا تؤثر الخلجات الباطنية الخفية التي كنت أسرقها في مستقبلهن في هذا العالم المتفاعل بقاعدة العلة والسبب؟

وكنت أتسائل بعد كل تجربة مع الواحدة منهن:

لنفرض أني امتلكتها دون أن تفهم مطلقًا معنى ذلك، ولكن ألن تخبر أحدا بالأمر فيما بعد؟

إلا أن تراني أشترك في صياغة أقدارها إذ أقحمتها في جنوني الشهواني، أواه لقد كانت هذه التساؤلات، ولا تزال مصدر عجب رهيب تملكني دائما.

على أنني علمت بعض الشيء بما تؤول إليه الواحدة منهن، بعد أن تكبر، عرفتُ بعض الشيء كيف يكون شكلهن.

في ذات أصيل من أيام الربيع كنت أسير في شارع جانبي قرب شارع المادلتي في باريس؛ عندما مرت بي فتاة نحيلة رشيقة بخطوات أنيقة سريعة، ولما التفتُ إلى الوراء وجدتها قد فعلت الشيء ذاته.

كانت تكاد لا تصل إلى كتفي وكانت ذات وجه بيضاوي جميل مشرق كوجوه معظم الفرنسيات اليافعات؛ فتقدمت نحوها وقد أحببت منها أهداب عينيها الطويلة ومفاتن جسدها النحيل، التي كان يبرزها ثوبها الضيق.. ولما وجدت أنها لا تزال تحتفظ بصدى مراهقتها ارتعدت بقشعريرة الغبطة، وشعرت بعروقي تتوتر، وأنا أتأمل خطوط جسدها الذي لم يتخلص رغم تجاربه الكثيرة بخفة وبصوت كرنين الفضة:

- مائة فرنك.

وأردت أن أساوم، ولكنها كانت قد لمحت رغبتي الشديدة في عيني المسدلة الأهداب؛ فرمشت بعينيها وهزت كتفيها وردفيها قائلة (أنت حر!) وتحركت كما لو كانت تريد أن تذهب.

وأعطيتها المائة فرنك، وسألتها عن اسمها وعمرها فأجابت بأن اسمها (مونيك) وأن عمرها ١٨ عاما.

إنني خبير ببنات الطريق ولا يستطعن أن يخدعنني.. كلهن يجبن بأن عمرها ١٨ عاما بلهجة حاسمة قاطعة يستخدمنها عشر مرات في اليوم مع عشرة زبائن على الأقل إلا أن (مونيك) لم تكن تقل عن الثامنة عشرة من عمرها؛ فلقد أضافت كذبا سنتين أو ثلاثًا إلى عمرها الحقيقي الذي استنتجته من تفاصيل جسدها الناحل الرقيق الذي لم ينضج بعد.

خلعت مونيك ثيابها بسرعة مدهشة، ووقفت برهة وقد لفت جانبا من الستارة على جانب جسدها، وأخذت تصغي إلى أنغام كان يرسلها عازف أرغن متجول. كانت تصغي بلذة طفولية، فقد كانت بشعرها الكستنائي الأشعث وعينيها العسليتين البراقتين، وبشرتها تبدو رائعة بما فيه ما الكفاية، ويجب أن أقول هنا إنها كانت، من بين الثمانين بغيا اللواتي عرفتهن في حياتي، والوحيدة التي أمدتني من اللذة الأصيلة.

لقد أبهجها كوني أعطيتها ٥٠ فرنكًا علاوة على المتفق عندما خرجنا معا نخطر على الرصيف في تلك الليلة الربيعية، ولم أتركها تلك الليلة إلا بعد أن تواعدت معها على أن تأتي إلى شقتي بعد ظهر اليوم التالي.

كانت كذلك قد أصيبت بالرشح، وقد انتقلت العدوى إلى مما حملني على أن ألغي موعدي الرابع معها، غير أنني ما شعرت بالأسف لأنني قطعت سلسلة علاقة انفعالية كانت قد بدأت تهددني بخيبة أمل تزداد مرارة.

وهكذا فضلتُ أن تبقى بالنسبة إلى تلك (المونيك) الرقيقة الناحلة، فضلتُ أن ترسخ في ذهني كحورية جائعة تتألق بالسعير الجنسي الطفولي عبر شخصياته الواقعة كعاهرة محترفة.

على أن معرفتي بها قد قادتني إلى نشدان علاقات مع مثيلاتها؛ فقادني إعلان غامض في إحدى المجلات الداعرة إلى مكتب المدموازيل (اديث) التي قدمت إلي مجموعة من الصور لأنتقي واحدة تفي بغرضي وعندما دفعت بالمجموعة جانبا، واستطعت أن أسر إليها برغبتي الإجرامية، خيل إلي أنها على وشك أن تطردني، ولكنها سألتني بعد تردد على الثمن الذي أستطيع أن أعرضه، فلما رأت كرمي رضيت بأن تصلني (بشخص يستطيع أن يرتب الشيء).

وفي اليوم التالي لاقيت عجوزا شوهت وجهها بالأصباغ، ثم أخذتني إلى بيت حقير. وفي الصالون أزاحت

ستارا بانت وراءه طفلة بدينة ساذجة لا تتجاوز الخامسة عشرة، عقصت جدائلها السوداء بشرائط قرمزية، وجلست مترهلة بليدة تحتضن دميتها.

وعندما هززت رأسي بالرفض وحاولت الخروج من الفخ، سارعت العجوز فنفضت عن الطفلة قميصها الصوفي وهي تهدر بالكلام لتريني مفاتن (الحورية)، ولكنها لما رأت إصراري على الرحيل، أمسكت بي تريد أجرها. وسرعان ما ولج إلى الغرفة من جانبيها رجلان عتيان اشتركا في النقاش الحاد، وكان أحدهما يضع نظارة سوداء؛ فقالت لي العجوز إنه كان مخبرا في الشرطة الأخلاقية، ولذا فمن الخير أن أدفع المطلوب. ودفعت رغما عني. وانصرفت.

لست أدري لما كانت تجربتي في مكتب المدموازيل أديث لتسهيل (الخدمات الدافئة) حلقة أخرى في سلسلة أقداري الغائبة. ولكنني قررت بعد تلك الحادثة أن الزواج هو أفضل لسلامتي، وخطر لي أن جو الحياة الزوجية قد يساعدني على إبقاء ذاتي تحت رقابة سليمة إن لم يساعدني على تطهير نفسي من شهواتي الدنيئة المخزية.

فأخذت أفتش عن الزوجة الملائمة، وبعد تفكير طويل وقع اختياري على ابنة طبيب بولوني كان يعالجني من نوبات من الدوار والغثيان. وكنت ألعب معه الشطرنج بينما كانت تسترق النظر إلي. وهنا يجب أن أقول إنني كنت ولا أزال بالرغم من مصائبي رجلاً جميل المحيا طويل القامة ذا شعر حالك ناعم ومظهر جذاب بشكل استثنائي.

وكنت أعرف بأنني أستطيع أن أحصل بإشارة من أصبعي على أية امرأة بالغة أختارها؛ فلقد أصبح من عاداتي ألا أتنبه كثيرا إلى النساء، ولا أعني بمطاردتهن إلا إذا قذفن أنفسهن إلى أحضاني الباردة.

ولو كنت فرنسيا متوسطًا عاديا أتذوق النساء الممتلئات لكنت قد حصلت على زوجة أكثر إغراء من زوجتي فاليريا على أنني اخترتها!!! مدفوعا كما أدركت فيما بعد بتسوية نفسية بين الشفقة عليها، والإشفاق من أن يؤدي بي شذوذي إلى مكروه وشيك.

إن كل ما تقدم يقيم الدليل على مدى جهل المسكين همبرت همبرت (الذي هو أنا) في شئون الجنس.

* * * *

(٨)

كانت (فاليريا) في العشرين من عمرها تقريبا فلم أستطع أن أعرف عمرها بالضبط، وكانت قد فقدت بكارتها في ظروف لم أجزم بها، فهي تروي لي الأمر مختلفًا كل مرة ووفق مزاجها أثناء الرواية.

والواقع أنني كنت مغفلاً معها إلى أبعد الحدود؛ فقد أعمتني قدرتها على أن تبدو كطفلة.. فقد كانت فتاة ألمانية ترتدي ما يكشف عن جزء كبير من ساقيها، وكانت تعرف كيف تظهر نصاعة بشرتها بانتقاء قطع الملابس السوداء.. وكانت تعرف كيف تتدلع وتميس دلالاً، وهي تلوح بغدائرها الشقراء كأية طفلة مراهقة أحست بالحياة تضطرم في صدرها.

بعد حفلة الزفاف المدني أخذتها إلى بيتي الجديد.

وكم كانت تسليتي بالغة في ليلة الزفاف هذه!! لقد انتهت الليلة، وطلع الفجر على العروس البلهاء وهي في حالة هستيرية.

ولم يمض زمن طويل حتى أخذت زوجتي تعود إلى حقيقتها كامرأة وتبتعد عن ملامح الفتيات. وسرعان ما

وجدت بدلاً من الفتاة النحيلة الشاحبة التي خُيل لي أني تزوجتها امرأة بلهاء وقصيرة الساقين ممتلئة الثديين عديمة التفكير.

ودامت حياتي الزوجية معها من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩ ولا ريب أن ظنها في قد خيب ظني فيها، ولكنها وجدت مخرجا لها في العناية بالبيت حيث كنا نقضي قليلاً من السهرات معا هي تقرأ في جريدة باري سوار وأنا منشغل بإحدى هواياتي، ولم أكن ألجأ إلى جسدها الممتلئ إلا نادرا وفي حالات الضرورة القصوى واليأس.

وفي الوقت ذاته كان هنالك ما يثيرني إلى حد الجنون.. فلصاحب الحانوت أمام بيتنا طفلة مثيرة كانت تبعث السعير في جسدي ولولا وجود فاليريا زوجتي لما استطعت أن أجد مخرجا مشروعا أروح به عن انفعالاتي الجامحة.

ومضت الحياة هادئة نوعا.. إلى أن بدأت مرحلة الانفجارات وكان ذلك في صيف ١٩٣٩ حيث توفي عمي في أمريكا تاركًا لي دخلاً سنويا من عدة آلاف من الدولارات على شرط أن أذهب للإقامة في الولايات المتحدة، وأن أهتم بشركة العطور التي أسسها.

لقد رحبت بهذا التحول فقد كانت حياتي بحاجة إلى هزة، وخاصة وأن العفن بدأ يتسرب إلى الكيان الزوجي، ففي خلال الأسابيع الماضية بدأت ألحظ على فاليريا نوعا شاذًا من عدم الاستقرار، بل كانت في كثير من الأحيان تعاني حالات من الهياج، مما يتنافر مع الشخصية المفروض أنها تمثلها كامرأة هادئة بلهاء. ولما أخبرتها أننا سنبحر قريبا إلى نيويورك بدت متهالكة مشدوهة، وأضحت منذ ذلك اليوم تائهة حزينة شاردة، لم ينفع معها وصفي للحياة المثيرة في أمريكا.

وأخذت أعد أوراق السفر، وذات يوم بينما كنا خارجين من قسم البوليس وقد أتممنا معاملات السفر لمحت فاليريا تهز رأسها هزات عنيفة متلاحقة، دون أن تلفظ بكلمة وتركتها لحالها فترة، ثم سألتها إذا كانت تعاني شيئًا أو ألما؟

هناك رجل آخر في حياتي.

كان ما سمعته كزوج شيئًا بشعا بالطبع.. ولكن لم يكن بوسعي أن أضربها في الشارع كما يفعل الرجل العامي المبتذل الشريف.. ولقد كظمت غيظي، فقد علمتني آلامي السرية عبر السنين كيف أكبح جماحي بما لا يستطيعه

إنسان.. ولكنني شعرت بغضب حارق يجتاحني ليس لأن جارا يراودني حيال هذه المخلوقة السخيفة مدام همبرت زوجتي، إنما لأنني كنت أعتقد أن من شأني وحدي أن أقرر في حياتنا الزوجية علاقات الوصال المشروعة والمحرمة.. وهكذا فوجئت بهذه البلهاء وهي تلعب دروا في أقداري وحياتي.

وسألتها ونحن في سيارة التاكسي عن اسم عشيقها فلم تجب، إنما أخذت تنتحب مثرثرة متحدثة عن تعاستها في حياتها معي، لم أطق صبرا، فصحت فيها بصوت غاضب أسألها اسم عشيقها.. ولكنها مضت في ثرثرتها قائلة إنها أعدت العدة لكي تطلب الطلاق فورا.

وأخيرا لم أتماك نفسي فضربتها بقبضتي على ركبتها سائلاً إياها عمن يكون عشيقها؟

ودون أن تلفظ بكلمة، ودون أن يهتز لها جفن، تطلعت في وجهي كما لو كان الجواب بديهيا لا يحتاج إلى كلمات، وهزت بكفيها، ثم أشارت بإصبعها إلى رقبة سائق السيارة.

هذا هو العشيق ذو الرقبة الغليظة.

أوقف السائق السيارة عند مقهى صغير نزلنا إليه نحن الثلاثة، وقدم لي نفسه معلنًا اسما طويلاً مضحكًا مشفعا إياه بلقب كولونيل سابق في الجيش الروسي.

وعلى المائدة أخذت زوجتي تقذفني بسيل من الكلام الدامع متحدثة عن إهمالي لها.. وعدم احترامي لشخصيتها.

ووضعت حدا لهذه الحياة الزوجية، عندما اقترحت أن تنتقل فاليريا لنحزم أمتعتها وترحل بها من بيتي، ولكن الكولونيل تطوع بشهامة لأن ينقل الأمتعة بسيارته.

وعدنا معه إلى بيتي بينما كانت فاليريا تثرثر طول الطريق. وبينما كنت حائرا أسأل نفسي، إذا كان يجب أن أقتلها أو أقتل عشيقها أو اقتلهما معا. أو إذا كان يجب أن أتركهما كحشرتين تنطلقان في فيافي الحياة.

وهنا تذكرت مرحلة في شبابي فكرت فيها بأن أقتل بمسدسي رفيقًا لي، لأتمتع بأخته، فقد كانت مراهقة وحورية مسحورة أثارت الشيطان في جسدي. ولكنني لم أفعل وخرجت من استعراض هذه الذكرى لا يستحق أن أقتلها لا بالرصاص ولا خنقًا.

وفي البيت أثناء حزم المتاع كنت كالمتفرج الأبله في مسرح، تُعرض فيه تمثيلية أعلى من مداركه.

ولم أسمع عنهما شيئًا بعد ذلك، سوى أنهما ذهبا إلى كاليفورنيا، حيث استأجرهما عالم أمريكي مختص بالأجناس البشرية، وأخذ يجري عليهما تجاربه المتعلقة برد فعل الجنس البشري، ورد فعل الجسد الإنساني حيال غذاء وحيد هو الموز والتمر.. هذا شرط أن يبقى الإنسان موضع التجربة طيلة الوقت سائرا أو واقفًا على قوائمه الأربع.

ولقد أقسم لي مخبري وهو طبيب بأنه رأى فاليريا وزوجها الكولونيل الأشيب وهما يدبان على أربعة مثل عدد آخر من اليائسين الذين استأجرهم العالم الأمريكي لتجاربه.

ولقد حاولت جهدي أن أعثر على نتائج هذه الأبحاث في مجلة "الأنتربولوجي –علم السلالات البشرية" ولكن عبثًا. ويبدو أن نتائج أبحاث هذا النوع تتطلب وقتًا أطول مما يظن.

* * * *

(٩)

وفي نيويورك قبلت الوظيفة السهلة التي عرضت علي ألا وهي إصدار نشرات دعائية عن عطور شركة عمي.

وفي الوقت ذاته حثتني إحدى جامعات نيويورك على أن أنهي المؤلف الذي باشرته عن تاريخ الأدب الفرنسي، والذي اقتضاني الجزء الأول منه ساعات طويلة من العمل لمدة سنتين. وإنني إذ أعود بالذاكرة إلى تلك الأيام فإنني أراها منقسمة إلى ساعات من الضوء الساطع وساعات من الظلام المعتمة.. إن الساعات الساطعة هي الساعات التي كنت أقوم فيها بأبحاثي في المكتبات العامة.. أما ساعات الظلام فترمز إلى رغباتي الثائرة المشفوعة بالأرق الشديد.

أما وقد عرفني القارئ جيدا فإنه يستطيع بسهولة أن يتصور اعتزازي واحتراقي، وأنا أحاول أن ألتقط بنظراتي لمحات من أجساد المراهقات المسعورات اللواتي كن يلعبن في الحديقة العامة، ويستطيع أن يتصور كذلك تقززي من الفتيات المحترفات اللواتي كن يلعبن مع نذل مرح.

ولكن لأضرب صفحا عن ذلك، كما أخبر القارئ أن هذه الحالة سببت لي انهيارا عصبيا، أرسلني إلى مصح

الأمراض النفسية قضيت فيه أكثر من سنة، فلما عدت لاستئناف عملي لم يطل بي الأمر حتى عدت إلى المصح.

وهنا بدا لأطبائي بأن الحياة في الهواء الطلق خليقة بأن توفر لي بعض الشفاء، وكان من بينهم طبيب شاب مرح لاذع النكتة ذو لحية كستنائية اهتم بأمري، وألحقني ببعثة إلى منطقة القطب الكندية يرأسها أخوه وذلك لأعمل مسجلاً للانفعالات والانعكاسات النفسية في الحياة القطبية.

وذهبت مع البعثة وتشاطرت من حين لآخر ـ مع شابين من علماء النبات ومع نجار عجوز ـ المسرات التي كانت تمنحها لنا بكرم الدكتورة (أنيتا) جونسون إحدى أخصائيات التغذية الملحقة بالبعثة، ويسرني أن أقول إنها لم تمكث طويلاً فقد أعيدت إلى الولايات المتحدة.

وإنني مدين بشفائي من تلك الحالة إلى اكتشاف توصلت إليه وأنا أعالج في ذلك المصح الباهظ التكاليف، فلقد اكتشفت ينبوعا غنيا بالبهجة العامة يكمن في مخادعتي لعلماء النفس والمكر بهم، عن طريق مجاراتهم ببراءة إلى ظنون ونتائج لا علاقة لها بي فكنت (دون أن أجعلهم يحسون بأنني أعرف أسرار مهنتهم) أخترع لهم الأحلام التي تدل على حالات غير

موجودة عندي.. وأبتكر لهم رؤى كنت أزعم أنني أراها في يقظتي هذا دون أن أتيح لهم أقل فرصة للتعرف على حقيقة إحساساتي الجنسية.

واستطعت برشوتي إحدى الممرضات أن أصل إلى قراءة التقارير السرية التي وضعها الأطباء النفسيون في ضوء معالجتهم لي.. فاكتشفت بشعور من المتعة أن بعضهم قد صنفني من جملة الأشخاص أصحاب الاستعداد للشذوذ الجنسي، بينما صنفني بعضهم في فئة الأشخاص أصحاب العفة الكاملة.

* * * *

(١٠)

وخرجت من المصح، وقد أخذت أفتش في الأرياف عن قرية هادئة أو مدينة صغيرة أستطيع أن أمضي فيها الصيف مكرسا وقتي لإنهاء مؤلفي الأدبي وللسباحة في بحيرة قريبة.

واستجابة لتساؤلاتي اقترح على أحد موظفي عمي السابقين أن أقضي شهور الصيف في مسكن ابن عمي الفقير المستر (ماك كو).

وذكر أن لابن عمي ابنتين؛ إحداهما رضيعة والأخرى في الثانية عشرة من عمرها، وأن لبيته حديقة جميلة غير بعيدة بديعة. وهكذا فقد وجدت اقتراحه بديعا ومرضيا.

وبعد مكاتبات مع العائلة المعنية تم الاتفاق، وتوجهت بالقطار حيث قضيت ليلة ليلاء، وأنا أحاول أن أتخيل مفاتن المراهقة المسعورة التي سأعيشها في بيت ماك كو التي سأغازلها بفرنسيتي، وأقاربها بالطريقة الهمبرية (طريقتي فاسمي هو همبرت كما يعلم القارئ).

لم يستقبلني أحد في المحطة الصغيرة، وأنا أترجل حاملاً حقيبتي الثقيلة فتوجهت إلى الفندق الوحيد حيث ظهر أمامي بغتة رجل مرموق مبتل الثياب ليخبرني بأن بيته قد احترق لتوه (ربما بسبب الالتهابات الحارة التي كانت تضطرم في عروقي طيلة الليل في القطار).

وقد قال لي أن عائلته قد لجأت إلى مزرعة يملكها، وأن صديقة حميمة لزوجته هي المسز هيز قد عرضت أن تأويني عندها.

وساورتني خواطر بالعودة، فقد زال ما كان يغريني بالسكن لدى (ماك كو) وشعرت بالغضب والضجر، ولكنني

كأوروبي مهذب لم أستطع أن أرفض الذهاب إلى بيت المسز هيز في سيارة سوداء ذات سائق زنجي استعارها ماك كو من جارة له.

وفي الطريق أقسمت فيما بيني وبين نفسي بأنني لن أبقى في مدينة رامسديل هذه، وأنني سأستقل الطائرة في هذا اليوم بالذات إلى برمودة، أو إلى أي جزء بهاما أو غيرها، فقد كان احتمال عثوري على شواطئ رائعة الأجواء تداعب مخيلتي، رغم أن ابن عم ماك كو كان قد استطاع عن طريق إلهاب خيالي بوجود الفتاة المراهقة، تحويل قطار أفكاري عن التوجه إلى تلك السواحل الاستوائية الدافئة.. ولكن صورة هذه الشواطئ عادت إلى مخيلتي الآن.

ووصلنا أخيرا وفتحت لي الباب خادمة زنجية تركتني على العتبة، بينما اندفعت إلى المطبخ لتتدارك شيئًا كان يحترق.

كان أثاث الصالون مزيجا من الأثاث الخشبي التحاري المكسيكي، وكان يدل على أن أصحابه من الطبقة الوسطى، وأنهم عريفون في أجواء تلك الطبقة ومفاهيمها.

فجأة أتاني صوت المسز هيز التي انحنت على حاجز درج الصالون متساءلة:

- حضرتك السيد همبرت؟

تساقط سؤالها في الجو مع شيء من رماد سيجارتها، ولم تتلاق جوابي فانحدرت على الدرج بصندلها الأحمر وثوبها الكستنائي اللون، وقميصها الحريري الأزرق ووجهها المربع الشكل.

أعتقد أنه من الأفضل أن أصفها في الحال لنتخلص أنا والقارئ منها.. كانت في منتصف العقد الثالث من عمرها.. وكانت ذات جبهة وضيئة وحاجبين منتوفين، بسيطة المظهر، ولكن ملامحها لم تكن غير جذابة كانت من النوع الذي هو حل وسط بين النسوة العاديات والنسوة اللواتي يشبهن مارلين ديتريش.

تحدثنا برهة عن الحريق الذي أتى على بيت ماك كو ثم عن مزايا الإقامة في مدينة رامسديل، ووجدتها ذات عينين خضراوتين، لهما طريقة عجيبة في استعراضك من فوق لتحت، مع تجنب الالتقاء بنظراتك.

وقد جلست على (الصوفا) ووضعت تحتها إحدى ساقيها، بينما مدت الساق الأخرى بحرية، كانت بوضوح من تلك النساء اللواتي قد يكشف لك كلامهن المصقول المهذب من انتمائهن إلى نادي أدبي أو نادي خيري أو غير ذلك من المنظمات التقليدية المضجِرة بشكل قاتل، ولكنه لا يكشف مطلقًا عن روحهن أو نفسيتهن، كانت من الصنف النسائي المحروم قطعيا.

من روح النكتة، غير المهتم قطعيا بعشرات المواضيع التي تُبحث في الصالونات بحرارة.

لقد أدركت منذ الوهلة الأولى بأنه إذا صدف وقطنت في منزلها، فإنها ستبدأ بالتصرف معي وفق ما يعنيه لها مفهوم إيواء نزيل عندها، وهكذا سأنغمس مرة أخرى في ذلك النوع من العلاقات الغرامية البشعة التي عرفتها جيدا.

ولهذا فقد بدت مسألة إقامتي في بيتها غير واردة، ولكنني سايرتها وصعدت معها إلى الطابق العلوي، لأتفقد الغرفة التي رفضتها سلفًا في أعماق نفسي، كانت غرفة تشبه غرف الخادمات بأثاثها وزينتها المبتذلة، ولكنها دعهتا بأنها نصف ستوديو، وقررت في نفسي أن أغادر المكان في الحال

بينما كنت أتظاهر بالتفكير في الأجر الرخيص الذي طلبته المسز هيز مقابل المأوى والمأكل.

إلا أن تهذيبي كإنسان من العالم الأوروبي القديم أجبروني على المضي في المسايرة، وفي تفقد الجناح الذي يضم غرفتي وغرفة لوليتا (خيل لي آنذاك أن لوليتا هو اسم الخادمة).

وفجأة قالت لي السيدة وقد تركت يدها تستريح برهة على ساعدي:

- أرى أن المكان لم يعجبك؟

كانت تقف وقفة من الوقفات المفروض أنها مغرية ولكن بشيء من الخجل..

وتابعت كلامها:

- إنني اعترف بأن بيتي ليس على ما يرام، ولكنني أؤكد اك (تطلعت أثناء ذلك شفتي) بأنك ستكون مرتاحا جدا عندنا.. دعني أريك الحديقة.

وبتردد نزلت معها الدرج، وعبرنا غرفة الطعام ومنها إلى الصالون، حيث فتحت بابا أطل فجأة على رقعة شديدة الاخضرار، ولما خرجت إلى الحديقة شعرت بموجة بحرية

جارفة، تتلاشى على جدران قلبي، ورأيت في ضياء الشمس عند مسبح الحديقة حبيبة الريفيرا تسترق النظر إلى من وراء نظارتها السوداء، وهي منحنية على ركبتيها نصف عارية.

أجل إنها آنبيل بالذات، مراهقة الريفييرا الحبيبة التي هي سبب صداع حياتي، وجدتها من جديد، بكتفيها الملوحتين بسمرة خفيفة وبذات الظهر العاري الناعم المخملي، وبدت الجدائل الكستنائية، كان هناك منديل ملون يخفي عن نظراتي صدرها، ولكنها لم يستطع أن يخفي عن نظرات ذاكرتي المرهقة تلكما الثديين المتمردين الذين عبثت بهما على شاطئ الريفييرا في يوم خالد من حياتي.

كان الشبه غريبا عجيبا ولقد ملأني سرورا وحبورا فخيل إلى أنني بطل رواية أسطورية من الروايات التي تُقص للأطفال، عن أمير خطف الجن حبيبته، ثم ما لبث أن اكتشفها بعد بحث طويل في أسماك العجر.

ومن وراء ظهر المسز هيز تطلعت من جديد إلى بطن تلك الحورية المستحمة في الشمس، الحورية التي عادت فيها حبيبتي آنابيل إلى الحياة، واستقرت نظراتي على ذلك البطن الخفيض الذي أرحت رأسي عليه فترة قصيرة في الريفييرا،

ثم استقرت نظراتي على وركيها الأنيقين النحيلين اللذين قبلتُ الأثر الذي تركه حزام سروالها في ذلك اليوم الجنوبي عند الصخور البنفسجية الظلال.

في هذه اللحظة انمحت من حياتي فترة الخمسة والعشرين عاما التي تفصل بين ذلك اليوم على الرييفييرا، وبين هذا اليوم في حديقة المسز هيز.

إنني أجد صعوبة قصوى في التعبير عن ذلك الزخم الذي اندفع في نفسي، وعن ذلك التأثير العاطفي الذي أصابني، وأنا أتطلع إلى تلك المراهقة الجاثية على ركبتيها، وشعرت بفراغ نفسي يمتص كل لمحة من ملامح جمالها البارق، ويقارنها بملامح حبيبتي الراحلة، ولكن لم يمض قليل حتى محت هذه الجديدة التي تُدعى (لوليتا) صورة نموذجها الأصلي آنابيل.

إن كل ما أريد تأكيده هنا هو أن اكتشافي لها كان نتيجة مفجعة لحلم الجزيرة المسحورة، التي تقطنها حبيبات مسحورات، ذلك الحلم الذي رافق أيام ماضي المعذب: فكل شيء جرى لي بين الحادثين (فقداني لآنابيل واكتشافي للوليتا) لم يكن إلا خبطات عشوائية في بحر الحياة، ولم يكن

ما عرفته من مسرات في تلك الفترة سوى شعور مزيف بالغبطة.

إنني لا أشك هنا بأن قُضاتي سيأخذون هذا الكلام بمثابة هذيان من رجل مجنون ذي ميل فظيع إلى (الفاكهة الفجة) ولكن هذا لا.... كل ما أعرفه هو أن ساقي كانتا ترتجفان وأنا أسير وراء المسز هيز إلى الحديقة، كانعكاس ساقين على مياه مضطربة.. أما شفتاي فقد أصبحتا جافتين محترقتين كرمل الصحراء.

وقالت:

- هذه ابنتي (اوليتا) وهذه هي أزاهيري..
- أجل – إنها رائعة - جدا..

* * * *

(١١)

إنني أسجل هنا من الذاكرة التي تشبه ذاكرة الجاسوس الذي يبتلع الرسالة السرية التي يحملها، بعد أن يكون قد حفظ محتوياتها غيبا، بحيث يستطيع سردها متى شاء.

أقول إنني أنقل من الذاكرة عن دفتر مذكرات أنيق كنت أحمله في جيبي، وأدون فيه مذكراتي بنوع من الإيجاز وبرموز أعرفها بمفردي.

إن المقتطفات التي سأسردها الآن تتعلق معظمها بأيام شهر (يونيو).

الخميس: كان يوما قائظًا، ولقد استطعت أن أرى من نافذة الحمام درولويس (لوليتا) وهي ترفع الغسيل من حبل ممدود في الصالة الخلفية من البيت، ثم رأيتها تخرج، كانت ترتدي قميصا شفافًا وسروالاً رجاليا أزرق وكانت كل حركة من حركاتها تضرب على أوتاري الباطنية الحساسة في جسدي الداعر المتيقظ، فخرجت كذلك إلى الحديقة، وجلست على الدرج، وما لبثت أن جلست هي الأخرى على درجة أدنى، وأخذت تنتقي الحصى بين قدميها.. ما أروع قدميها

إنني أستطيع أن أقضمهما، كما أقضم قصب السكر، وأن ألعق بشرتهما الحليبية كما ألعق الحلوى.

ويا لبشرتها الرائعة الصافية.. إن حب الشباب الذي يعكر صفاء جلد المراهقات لا يظهر قطعا على الحوريات المسعورات مهما أكلن من الأغذية المهيجة!!

تذكرت هنا أحلامي في القطار، حامت حول ابنة ماك كو، ثم عرفت تلك الفتاة، فرأيتها نحيلة ممروضة وعرجاء يكاد شلل الأطفال يقتلها.. ما أبعد الفرق بينها وبين هذه الحورية التي تنفجر بالحياة والحيوية المثيرة لجنون الرغبة.

ولما نهضت لتأخذ الغسيل أتيح لي أن أتأمل من بعيد بإعجاب مؤخرة سروالها الرجالي الباهتة اللون من الجلوس.

وظهرت في تلك الأثناء المسز هيز، وقد أمسكت بآلة تصوير، وبعد هرج ومرج منها التقطت صورتي، وأنا جالس على الدرج أحدق بنظرات تائهة غائمة.

يوم الجمعة: رأيتها ذاهبة مع فتاة داكنة السمرة تُدعى روز. إنني أتساءل لماذا تثيرني الطريقة التي تسير بها وتبعث في نفسي هذا الهياج المخيف وهي مجرد طفلة!!

السبت – إنني أعرف أن من الجنون أن أسجل هذه المذكرات اليومية، ولكن ذلك يبعث في نفسي رجفة غريبة تبهر نفسي.

وأذكر بغصة هذا اليوم أن لوليتا كانت تأخذ حماما شمسيا قرب الحمام، ولكن أمها وصديقاتها كن حولها طيلة الوقت.

وبالطبع كان بإمكاني أن أجلس هناك على الكرسي الهزاز متصنعا القراءة، ولكنني آثرت السلامة فابتعدت، إذ خشيت أن يمنعني اختلاجي الجنوني وارتعاشي المضحك المبكي، من أن أجعل دخول المنطقة يبدو طبيعيا عرضيا.

يوم الأحد: لا يزال الجو قائظًا والحرارة خانقة، وقد احتطت لأمري، فاخترت موقعا استراتيجيا عن الحمام وجلست على الكرسي الهزاز متظاهرا بالقراءة قبل أن تأتي لوليتا للاستحمام، ولخيبتي الشديدة جاءت مع أمها، وقد ارتدت كل منهما ثوب الاستحمام، حبيبتي للحظة بقربي وكانت تنبعث منها رائحة تماما مثل رائحة حبيبة الريفييرا ولكنها كانت أشد وأقوى، إنها رائحة تلفحها الحرارة أيقظت رجولتي في الحال، ولكن لوليتا سارعت بالانكفاء إلى قرب

أمها، حيث استلقت على بطنها تعرض علي وعلى الألف عين المبحلقة في دمائي لوحات كتفيها العاريتين وتموجات عمودها الفقري المورد، ومكورات قفاها المستورة بثوب الاستحمام الأسود، وهي تقرأ دستة من كتب الرسوم الهزلية المصورة، كانت أجمل حورية مراهقة، وإذا كنت ألتهمها بنظراتي عبر الوهج الشمسي وشفتاي الجافتان تعكسان شوقي إليها، شعرت بأن إحساسي بها قد يكون كافيا لتوفير اكتفائي الجنسي في الحال بواسطة الإيحاء الذاتي، ولكنني كحيوان مفترس يفضل الفريسة الحية على الميتة، قررت أن أتوصل إلى هذه النتيجة التي تدعو للرثاء عندما تقوم لوليتا بإحدى حركاتها الصبيانية، كأن تحاول حك ظهرها كاشفة عن إبطها المنمش بالشعر الرقيق.

يوم الاثنين: تميز هذا اليوم بخيبة أمل كبرى فقد كنا نعد العدة الأم هيز ولوليتا وأنا، للذهاب إلى البحيرة للنزهة والسياحة، ولكن ندى الضحى وقيظه تحولا إلى أمطار هاطلة عند الظهيرة.

إنني أملك كل المميزات والملامح التي يقول عنها الباحثون في اهتمامات الأطفال الجنسية، إنها تثير

الاستجابات المتحفزة في جسد المراهقة الصغيرة، فك أنيق، وصوت عميق وعضلات بارزة وكتفان عريضان، وبالإضافة على ذلك يقال إنني أشبه مغنيا أو ممثلاً تهيم لوليتا حبا به في خيالها المراهق.

يوم الثلاثاء: أمطار.. وأمطار.. ذهبت الأم إلى السوق أما لوليتا فكانت كما أعلم في مكان ما في البيت.. وبعد مناورات بارعة مني صادفتها في غرفة نوم أمها، وهي تحاول إخراج ذرة طرفت عينها اليسرى، فاسترقت خطواتي وتقدمت نحوها فامسكتها من كتفيها بقوة ثم أمسكت برقة طرفي رأسها وأدرتها نحوي فقالت لي:

- إن هذه القشة تختبئ تحت الجفن.. إنني أحس بها، فقلت لها:
- إن الفلاحين السويسريين يستخدمون رأس اللسان لاستخراجها فهل تريدين أن ألحسها لك؟

ولما أجابت بالموافقة أمررت طرف لساني الملتهب على طول مقلتيها فقالت لي:

- ما أبدع ذلك لقد ذهبت..

فقلت لها:

- إذن فلنعالج العين الأخرى.

- أيها الغبي ليس هناك شيء في..

ولم تتم كلامها فقد أحست بشفتي تقتربان، فاستسلمت مطواعة، ومدت محياها الدافئ الجميل نحوي، بينما كنت ألحس جفنها الكحيل. وما لبثت أن ضحكت وأخرجتني من المخدع.. وأنا أشعر بقلبي يسبح بسعادة غمرت كل مكان.. وبشكل لم يحدث لي مثله من قبل حتى في أثناء مداعباتي مع حبيبتي آنابيل في فرنسا.

ولكن عندما جاء الليل شعرت بعذاب نفسي لا مثيل له.. فلقد أردت أن أصف لنفسي وجهها وعبثها، ولكنني لم أستطع لأن شوقي إليها يعميني عندما تكون قريبة.. فلم أتعود أن أكون على مقربة من الحوريات الجميلات.. وهكذا كنت لا أرى إذا أغلقت عيني سوى لمحات لا تتحرك منها مثل الصور الفوتوغرافية.. لمحات من ساقيها العاريتين مشفوعة بصدى صوت أمها يهتف بها:

- (دولوريس لا تكشفي عن ساقيك).

إنني أستطيع أن أكون شاعرا في ساعات مزاجي الرائق وقد كتبت شعرا أتغزل فيه برموشها القاتلة وعينيها العميقتين

وبرشاقة تقاطيعها، ولكنني ما لبثت أن مزقت القصيدة.. إنني لم أصف كل ملامح لوليتا للقارئ.. إنها كستنائية الشعر أما شفتاها فقرمزيتان، أما شفتها السفلى فتنحدر متثاقلة بإغراء. آهٍ لو كنت سيدة كاتبة لكنت قد عريتها في الليل العراء.. ولكني رجل. رجل فيه كل ملامح الرجولة الخشنة. وذو ابتسامة صبيانية.

أما ما يثير جنوني فهو طبيعة هذه الجنية. تلك الطبيعة ذات الشقين، فهي ليست طفلة وهي ليست امرأة، إنما هي مزيج من براءة الطفولة في الملامح ودلال الغانيات في الحركات.

والأهم من هذا أن لوليتا قد جسدت شوقي القديم فلم يعد هناك من شيء أهم منها. فهي قبل كل شيء وفوق كل شيء حبيبة قلبي.

يوم الأربعاء: تقدمت لوليتا نحوي وهمست بصوت يرتعش:

- (أقنع أمي بأن تأخذني وإياك إلى البحيرة غدا).

وكان ذلك عندما اصطدمنا عند الغسق على العتبة اصطداما جعلني أرتعش كأوراق شجرة الدردار التي كانت تتلاعب بها بقايا ريح الأصيل.

يوم الخميس –جلسنا ليلاً عند البركة.. لوليتا وأمها وأنا وكان الغسق الدافئ قد تحول إلى ظلام لنوازع الغرام.. وقد استمعنا مطولاً إلى قصة الفيلم الذي شاهدته المسز هيز مع لوليتا في الشتاء الماضي. بينما جلسنا على وسائد مكومة على الأرض وكانت لوليتا تجلس بيني وبين.. والدتها.

واندفعتُ أتحدث عن مغامراتي في القطب الشمالي بكثير من التفاصيل الخيالية المنيرة، وجاءني شيطان الوحي فأعطاني بندقية أصبت بها دبا أبيض، وبينما كنت أصف لهما مقتل الدب المزعوم كنت أشعر بقرب لوليتا مني، وكنت أحرك يدي مع كلامي منتهزا فرصة الظلام، لأمس كيفما اتفق أي موضع من جسد لوليتا، فكنت أحيانًا أمس يدها وأحيانًا كتفها، بينما كانت تلعب بدمية من الصوف ظلت تقذفها إلى حجري.. وعندما أثرتُ دماء لوليتا بتلك المغازلات الحثيثة تجرأت، وأخذت أفرك ساقيها العاريتين منتهزا فرصة ضحكي من حين لآخر، حتى أهوى عليها

وأتنشق عبير رأسها، وأمرغ وجهي فيما يبرز ويتكور من جسدها.

أما هي فقد كانت متجاوبة معي في هذا العبث، ولكن لما أكثرتْ من دلعها أمرتها أمها بالعودة إلى البيت، وقذفت باللعبة إلى الفضاء، أما أنا فقد ضحكت وتوجهت بالكلام إلى أمها.

على أنني لم أنس أن كل ذلك لا ينطوي على فائدة.. وشعرت بالحنين ينتابني، كما شعرت بثيابي تضيق علي حتى تكاد تخنقني، بحيث شعرت بسروري عندما هتفت أمها في الظلام:

- إننا نعتقد جميعا بأن على لوليتا أن تذهب للنوم.

فأجابتها لوليتا:

- أعتقد أنكما تهذيان..

- إذن لن تكون هناك نزهة إلى البحيرة.

- فلا يمكنك أن تستبدي في هذه الأمور يا أمي.

قالت لوليتا ذلك برنة سوقية متمردة، واندفعت إلى البيت، بينما بقيت أنا في مكاني بحكم الاستمرار لأشاهد الأم

تدخن سيجارتها العاشرة، وأسمعها تشكو طويلاً من تصرفات لوليتا.

قالت لي أنها كانت مشاكسة منذ كانت في العام الأول من عمرها، فكانت لا تنفك تلقي بلعبها إلى الأرض حتى تظل أمها المسكينة منحنية تلتقط اللعب لها.

أما وقد بلغت الثانية عشرة الآن، فقد أصبحت آفة مزمنة، هكذا قالت أمها فهي لا تريد من الحياة شيئًا سوى أن تقضي يوما راقصة متخلعة، متشخلعة وهي لا تحصل في المدرسة إلا على أدنى الدرجات، ولكنها مع ذلك أصبحت أحسن حالاً مما كانت عليه في مدينة بيسكي قبل سنتين.

سألت الأم:

- ما الذي كان يزعج لوليتا هناك؟
- أوه.. إنني أعلم طبيعة ذلك الإزعاج، فلقد مررت به عندما كنت طفلة. فقد عانيت الكثير من الأولاد الذين يضربون الفتيات ويبرمون أذرعتهن ويشدون شعورهن.

وبالطبع فإن النزق من هذه المعاكسات هو من طبيعة الفتيات في هذه السن، ولكن لوليتا كانت تبالغ في الأمر.

أتعرف ما أريده منك يا سيدي.. أريد إذا كنت ستبقى معنا إلى الخريف أن تعطيها بعض الدروس لتساعدها في دراستها، إذ يبدو أنك تعرف كل شيء.. الجغرافيا. الحساب. الفرنسية.

- أجل كل شيء.

- هل يعني هذا أنك ستبقى معنا؟

أردت أن أصيح بأنني أود أبقى بقرب لوليتا هنا إلى الأبد إذا كنت أستطيع فقط أن ألامسها وأداعبها بين الفترة والأخرى. ولكنني لم أجب على سؤال الأم فقد كنت قد ضجرت منها. فنهضت وذهبت إلى حجرتي.

يوم الجمعة – سأصاب بانهيار عصبي آخر إذا ظللت مدة أطول في هذا البيت، تحت وطأة إغراء لا يقاوم بجانب حبيبتي.. عروسة أحلامي وحياتي..

إنني لأتساءل إذا كانت أمنا الطبيعة قد بدأت تعمل عملها في جسد لوليتا، وتدفعها إلى طريق أسرار النشوة؟

إنني أكاد أجن. إنني أشعر بلعنة تنصب علي من السماء.

أما إذا اقترفت جريمة جديدة خطيرة فإن حافزي عليها لابد أن يكون شيئًا أعمق مما حدث بيني وبين (فاليريا) زوجتي الخائنة، ويجب أن يلاحظ القارئ بأنني كنت حينئذ عاجزا، فإذا ما رغب في أن يعصر عنقي حتى الموت، فيجب أن يذكر ما إن يستطيع أن يعطيني شيئًا من القوة على أن أكون عتيا لا يعدو عن نفحة من الجنون.. وأنني لأصبح عتيا جبارا في بعض الأحيان ولكن في أحلامي، ولكن هل يدري القارئ كيف يكون الأمر!

أثناء الطعام هذه الليلة قالت لي الأم الماكرة وهي تغمز بعينها غمزة ذات معنى صوت لوليتا قائلة:

- لقد لاحظت بأنك بدأت تربي شاربيك، والأفضل ألا تفعل حتى لا تسلب عقل (شخص ما).

وفي الحال دفعت لوليتا بصحنها جانبا، وكادت توقع قدح اللبن، وخرجت من غرفة الطعام مستاءة بينما التفتت إلى أمها قائلة:

- أيضايقك أن تأتي معنا غدا إلى نزهة عند البحيرة إذا اعتذرت لوليتا عن سلوكها.

وبعد ذلك انسحبت الأم، وسمعت من بعيد عبر الأبواب خبطًا شديدا فعرفت أن الغريمتين تتشاجران، وبالطبع لم تعتذر لوليتا، وبالتالي لم تذهب إلى البحيرة.

يوم السبت – منذ أيام وأنا أترك باب غرفتي مفتوحا أثناء انشغالي بالكتابة، ولكن هذا الفخ لم ينجح إلا اليوم.. فبكثير من اللف والدوران لتخفي حرصها من زيارتي دون أن أدعوها، لذلك دخلت لوليتا الغرفة، وبعد أن دارت هنا وهناك لفتتُ انتباهها إلى الصورة البيانية التي رسمتُها لكابوس من كوابيس أحلامي.. لقد كنت أحلل هذه الكوابيس فلا أجدها من قبيل جموح الخيال الأدبي، إنما أجد الدلائل على أنها تنبع من شبقي القاتل إلى الجنية المسعورة.

وإذا انحنت برأسها الجميل على المنضدة التي أجلس إليها لف همبرت الفاجر (الذي هو أنا) ذراعه حول وسطها في حركة من العطف الأبوي مصطنعه اصطناعا رديئًا، وإذا كانت زائرتي البريئة تدرس مبهورة رسم كابوسي، فقد أخذت تجلس بحركة عفوية تدريجية على حضني. وكان وجهها الرائع وشعرها الحريري وشفتاها المنفرجتان في متناول أنيابي العارية، وشعرت بدفء جسدها يتصاعد من

ثنايا ثيابها.. وأدركت في الحال بأنني أستطيع أن أقبل عنقها وألثم فمها، دون أن أخشى شيئًا، فقد كنت أعرف بأنها خليقة بأن تتركني أفعل ذلك، وأنها خليقة كذلك بأن تتقبل قبلاتي وعيناها مغلقتان كنجمة سينمائية.

لست أستطيع أن أخبر قارئي الذي لابد أن حاجبيه قد ارتفعتا حتى كادا يمسان أعلى جبهته.. من أين أتاني هذا العلم. فلربما استطاعت أذني المرهفة المدعومة بلا وعي أن تميز تغيرا طفيفًا في الإيقاع الذي كان يسير عليه تنفسها، ذلك لأنها في الواقع لم تكن مستغرقة في تأمل الرسم، إنما كانت تنتظر بفضول وتلهف من نزيل بيت أمها أن يفعل ما كان يتحرج أن يفعله، وما كان غريبا عليها أن تتوقع ذلك وهي القارئة الخبيرة بمجلات السينما، ومعانقات الشاشة السينمائية.

الاثنين – كان يوما ماطرا.. وشعرت بنفسي أشبه ما أكون بعنكبوت شاحب من العناكب التي تراها في الحدائق القديمة، وهي جاثمة وراء شباكها تتطلع هنا وهناك.

أما شباكي فقد نصبتها في جميع أنحاء البيت، فكنت أتسمع من معقدي الحركات محاولاً تبين موضع لوليتا في

البيت من وقع قدميها.. وأنا أرجو بين الحين والآخر أن تظهر أمامي.

وفجأة سمعت من خلف بابي المشقوق صوت لوليتا ضاحكًا مداعبا:

"لقد أكلت كل نصيبك من لحم الخنزير، فلا تخبر أمي بذلك!"

وهرعت إلى الباب، فإذا هي قد اختفت. أين أنت يا لوليتا؟

أنا لا يهمني طبق الفطور.. لولا، لوليتا.

الأربعاء – قالت لي هيز بعد الظهر أنها ذاهبة للسوق لشراء هدية لصاحبة لها، وطلبت مني أن أصحبها نظرا لأن ذوقي رفيع في اختيار الأقمشة والعطور.

والواقع أنها دفعتني دفعا إلى سيارتها فلم أستطع الهرب، وإذ كنت أدفع بنفسي إلى المقعد سمعت صوت لوليتا الرفيع من نافذة الصالون:

- هيه إلى أين؟.. أنا ذاهبة أيضا.. انتظراني

وقالت لي أمها أن أتجاهلها، بينما أطفأت المحرك بانتظار لوليتا التي فتحت باب السيارة بعنف.

فصاحت هيز: "هذا لا يطاق".

ولكن لوليتا أخذت تضحك معابثة.. وقالت:

- هيا أفسح لي حتى أجلس.

وصاحت أمها فيها:

- لوليتا.. ما هذا الكلام؟ إنه لا يطاق أن تتصرف طفلة مثلها تصرفًا قليل الأدب.. وأن تتطفل حيثما تعرف أنها مكروهة.

ولكن لوليتا لم ترد وظلت جالسة وساقها يمس ساقي.. وتطلعت فوجدتها قد أتت حافية، ورأيت آثار الصباغ الأحمر على أصابع قدميها، وفجأة انحدرت يدها إلى يدي، ودون أن تحس أمها ضغطتُ على يدها الدافئة وظللت ممسكًا بها طيلة الطريق إلى المحل، وأنا أضرع إلا نصل أبدا إلى المحل.

ليس هناك ما أسجله سوى أن أمها حملتها في طريق العودة على أن تجلس في المعقد الخلفي.

الجمعة – إنني أتوق إلى وقوع كارثة رهيبة.. زلزال. انفجار. أي شيء.. بحيث أجد لوليتا فجأة بين ذراعي ونحن بين الأنقاض فأتمتع بها كما يحلو لي وأمها بعيدة.

لو كنت أشجع قليلاً مما أنا عليه لنلت منها مرامي بالأمس، حيث دخلت غرفتي من جديد لتريني رسوماتها المدرسية. لو كان غيري مكاني لاستطاع أن يرشوها ويستدرجها.

كانت هيز قد قالت أن نشرة الطقس تبشر بأحد مشمس، فإذا صحت نبوءتها فإننا سنذهب إلى البحيرة.. استلقيت على سريري في حالة من التوتر، وأنا أتخيل لوليتا محاولاً أن أنام وشبحها بين ذراعي.. وفجأة أخذت أفكر في خطة نهائية للاستفادة من النزهة. كنت عارفًا بأن أمها تبغضها لأنها تلاطفني و تتدلع علي.. وهكذا فقد قررت أن أجعل النزهة مناسبة لاكتساب إرضاء الأم.. فقررت أن أقتصر على الحديث معها إلى أن تحين لحظة مناسبة أدعي فيها أنني نسيت ساعة يدي في المكان المعشب الذي كنت أضطجع فيه، وأذهب للتفتيش عنها في الغاب يدا بيد مع حوريتي لوليتا.

الأحد – رأيت منظرا بديعا.. رأيت وأنا أمر أمام نافذة الصالون شيئًا من صدرها الجميل، وهي تتحدث مع بائع الصحف.

تطلعت إليها بعيني زاحفتي النظرات، وشعرت بأطرافي تذوب وتموج كأطراف عنكبوت عجوز.. وكان يخيل إلى أني أراها من فتحة تلسكوب عملاق، ودخلت المنزل وصعدت إلى الصالون أجرجر نفسي كالمشلول محددا بصري بردفها المبسوط وأخيرا انسللت إلى ورائها، حيث ارتكبت حماقة تافهة بمفاجأتها مفاجأة حمقاء تافهة.. إذ أمسكت بطرف منديل عنقها وأخذت أهزها.. لقد فعلت ذلك لأخفي اضطرابي.

فصاحت بي الجنية الصغيرة بصوت رفيع وبلهجة مبتذلة: كفَى. كفَى.

فتراجعت إلى الوراء بمذلة، بينما مضت في حديثها مع بائع الصحف كأنما أثقلتُ عليها.

ولكن بعد الظهر بينما كنت جالسا أقرأ حجبتْ نظري يدان رقيقتان.. فقد جاءت من خلفي وأخفت عيني بأصابعها التي بدت حمراء قرمزية، وهي تحاول حجب ضوء الشمس

عن ناظري.. وما لبثت أوليتا أن انفجرت ضاحكة. وأخذت تتمايل يسرةً ويمنة بينما كنت أدفع إليها ذراعا متسللة.. وسرعان ما لمست يدي ساقيها الرقيقتين الدافئتين ووقع الكتاب الذي كان بيدي الأخرى على حجري.

وفجأة دخلت الأم وقالت باستياء:

- اصفعها في المرة الثانية إذا قطعتْ عليك قراءتك العلمية..

وأردفت قائلة بصوت عديم الطعم: آهٍ كم أحب هذه الحديقة..

قالت السيدة ثقيلة الظل هذا، وافترشت الأرض المعشبة وهي ترفع أبصارها إلى السماء.. كرة.

وفجأة وقعت عليها كرة تنس قديمة غبراء.. وسمعنا صوت أوليتا من المنزل ضاحكًا: العفو يا ماما لم أكن أقصدك.

بالطبع لم تقصدها فقد كانت الجنية اللعوب تقصدني.

* * * *

(١٢)

باءت جميع محاولاتي الشيطانية بالفشل.. وظلت الحال على ما هي عليه. ففي كل يوم يغريني الشيطان ويهيجني، ثم يتركني فجأة فتتخلى عني شجاعتي، وأحس بالآلام تأكل كل وجودي.

كنت أعرف تماما ما أرغب في أن أفعله، وكيف أفعله وذلك دون أن أنتهك رغم كل شيء، عفاف الطفلة.. ففي حياتي تجارب سابقة في مداعبة المراهقات دون الإضرار بهن.. وفي الاحتكاك بهن في الحدائق المزدحمة.

مرت علي ثلاثة أسابيع وأنا أرسم الخطط فتحبطها الأم هيز التي ربما لاحظ القارئ أنها تخشى أن تنال ابنتها بعض اللذة مني أكثر مما تخشى أن أتلذذ بابنتها.

إن التوقد الذي نما في قلبي حيال هذه الحورية كان خليقًا بأن يدفعني من جديد إلى مستشفى الأمراض العقلية، لولا أن إبليس قد أدرك بأنه يجب أن يتوفر لي ما يفرج عن نفسي إذا كان يريد أن يلعب بي زمنًا أطول.. فقد كانت لوليتا آخر حورية يمكن أن تصل إليها مخالبي المرتعشة الخجولة.

ولعل القارئ قد لاحظ أن كلمة البحيرة قد كثرت في حديثي، ولكن القارئ لا يعلم أن المسز هيز قد حطمت أحلامي، إذ أخبرتني بأن ماري هاملتون المراهقة السمراء الجميلة ستأتي معنا أيضا.. فخطر لي كيف أن الحوريتين المسعورتين ستقضيان الوقت في التهامس واللعب مع بعضهما بعضا.. بينما سأضطر إلى التسامر مع أمها ونحن نصف عاريين، وبينما ستشرد عيناي أثناء الحديث ناحية لوليتا.

* * * *

(١٣)

إن القدر يعاكسني.. فقبيل اليوم المحدد للنزهة تلفنت أم ماري هاملتون لتخبر السيدة هيز بأن ابنتها مريضة بالحمى.. ولن تذهب للنزهة.

ونتيجة لذلك أبلغت هيز ابنتها لوليتا بأن النزهة ستؤجل.

سمعت ذلك وأنا أخرج من غرفتي لأضع في الممر صينية إفطاري بعد أن انتهيت من طعامي. وساد الصمت على المنزل، فحلقت ذقني ثم تسللت دون أن أمسح الصابون تماما عن وجهي منحدرا إلى الصالون بحثًا عن لوليتا.

إنني أريد من قرائي أن يشتركوا في الحادثة التي سأرويها. أريدهم أن يمحصوا كل تفاصيلها، ليروا كم كانت طاهرة نقية الحادثة العذبة، إذا نظروا إليها بما وصفه المحامي الذي يدافع عني بأنه "عطف منزه عن الهوى".

إن بطل الحادثة المسرحية هو بالطبع أنا همبرت.. أما زمانها فهو يوم أحد من شهر (يونيو) أما مكانها فهو قاعة الاستقبال السابحة في ضوء الشمس.

كانت لوليتا تلبس ذلك اليوم ثوبا ظريفًا مقلما رأيته عليها مرة واحدة فقط، وكانت قد صبغت شفتيها بالأحمر انسجاما مع قوامها الممشوق الذي يرصد الثوب، ويبدي مكوراته ولتكمل الصورة الجميلة بذراعيها العاريتين، وخديها المضرجتين، كانت تحمل في يدها تفاحة حمراء نضرة.. لم تكن على كل حال راغبة في الذهاب إلى الكنيسة، فقد كانت محفظتها البيضاء ملقاة كيفما اتفق قرب جهاز التسجيل.

وأخذ قلبي يدق كالطبل بينما جلست على الأريكة بجانبي والهواء ينفخ جيبتها البيضاء، وهي تلعب لاهية بالتفاحة فقذفت بها إلى أعلى والتقطتها.

وفجأة انتزعتُ التفاحة منها فصاحت متوعدة بيد بضة: أعطني إياها.. فمددتُ يدي بالتفاحة وسارعت فتناولتها وقضمتُ منها قضمة، بينما كان قلبي يذوب كالثلج تحت تأثير ملامستها. وما لبثت أن انتزعت من يدي المجلة التي كنت أتظاهر بقراءتها وأخذت تقلب بسرعة الصفحات بحثًا عن موضوع تريدني أن أراه. وافتعلت الاهتمام فأدنيت رأسي إلى قربها بحيث لامس شعرها جبهتي، وبحيث لامست ذراعها خدي، عندما مسحت فمها بمعصمها، بينما كانت ركبتاها تهتزان وتتصادمان وتتلامسان بعصبية. ثم ما لبثت أن سحبت المجلة من يدها فانبطحت علي في محاولة عقيمة لاستعادتها، فقبضتُ على مرفقها النحيل وسقطتْ المجلة على الأرض، فتململت "لو" وانتزعت نفسها من أحضاني، وعادت إلى جلستها تستند إلى حافة الأريكة، ثم ما لبثت الطفلة الغريرة أن مدت ببساطة متناهية ساقيها وأراحتهما على حضني.

في هذه اللحظة انتقلت إلى حالة من الهياج تكاد تصل حد الجنون، ولكنني احتفظت بمكر المجنون. فمن جلستي على الأريكة استطعت أن أضبط ـ بعد سلسلة من الحركات

المستترة ـ أنغام شبقي المستور إلى أعضائها الطاهرة ولم يكن سهلاً علي تحويل انتباه المراهقة على مقاصدي أثناء كنت أقوم بالتعديلات اللازمة لوضعي حتى تنجح العملية. فأخذت أتكلم بسرعة متظاهرا بوجع الرأس لأوضح التقطع في أنفاسي، بينما كنت في الوقت ذاته أسلط عينًا داخلية مهبولة على هدفي الذهني النائي.

وفي أثناء تلعثم أنفاسي وكلماتي وقعت على كلمات أغنية "كارمن يا عزيزتي" التي أخذت أرددها بشكل آلي كتعويذة سحرية، وأنا أشعر بفزع شديد من أن تتدخل الأقدار فتقطع لذتي وتزيل عن حضني الحمل الذهبي الذي بدا لي أن كل وجودي قد تركز في التلذذ به. هكذا فقد أجبرني هذا القلق على أن أعمل في ظرف الدقيقة الأولى باستعجال لا يتلاءم مع المتعة المدبرة بشكل متعمد.. أما هي فكانت تصلح لي أنغام الأغنية إذا كانت تعرفها، وكانت أذنها موسيقية.

كانت ساقاها تختلجان قليلاً في امتدادهما فوق حضني المتوثب، ولما أمررت بيدي عليهما أطلقت نغمات رنانة وهي ماضية تأكل تفاحتها، وأخذت تهز قدميها حتى سقطت إحدى فردتي حذائها على كومة المجلات بجانبي.

لقد كانت كل حركة تصدر عنها تساعدني على إخفاء وتحسين ما ابتدعته حينذاك من وسيلة للاتصال البارع بين الوحش والحسناء. الاتصال بين وحشي الحبيس المتفجر وبين جمال جسدها البرئ.

شعرت بأن رؤوس أعصابي قد تحولت إلى عيون رأيت وأحسست بواسطتها بالزغب الناعم المنتشر على طول قصبة ساقها، وسرعان ما ضعت في غمرة الحرارة اللاذعة التي تتضوع من جسد لوليتا كوهج الصيف.

وبينما كانت تأتي على آخر تفاحتها كنت أضرع بأن تبقى كما هي.. ولكنها ما لبثت أن انحنت لتلقي بقية التفاحة في المنفضة فكان أن انحدرت بثقل بطن ساقيها على حضني المتوتر المتعذب.. وفجأة طرأ على حواسي تغير غامض فقد دخلت مرحلة لم يعد فيها لأي شيء أهمية سوى دفق المتعة التي كانت تغمر قرارة نفسي. وأخذت أتأمل تلك الحورية الزهراء البشرة التي مسحتها الشمس بصبغة ذهبية.. أخذت أتأملها، ولكن وراء قناع لذتي المكبلة عن رضى وهي غير شاعرة بها بينما كان خيط من أشعة الشمس على شفتيها وهما تتراقصان، إذ كانت لا تزال تغمغم بأغنية "عزيزتي

كارمن". ولقد أصبح كل شيء جاهز الآن... فلقد تعرت أعصاب اللذة وبدأت مناطق الإحساس في جسمي تدخل مرحلة الخيل، فكان أقل ضغط يكفي للوصول إلى النهاية الرائعة، في تلك اللحظة شعرت بنفسي قويا عتيا مدركًا كل الإدراك لحريتي كسلطان تركي يرجئ عمدا لحظة الاستمتاع بأصغر وأجمل محظياته.

وإذْ شعرت بنفسي معلقًا على شفير الهوة الشهوانية فقد ظللت أردد وراءها كلمات الأغنية كإنسان يتكلم ويضحك في نومه بينما كانت يدي التي تقطر سعادة تدب على ساقيها الملوحة بسمرة الشمس إلى أبعد ما تسمح به خلال التأديب!

ومضيت أجس ساقها براحتي بسهولة ويسر، فلقد كانت ثيابها الداخلية من التحلل بحيث لم يكن هناك من شيء يمنع إبهام يدي من الوصول إلى الأعماق الحارة، وبينما كنت أدغدغ ساقها ردت علي:

- أوه..

قالت ذلك واندفعت في ضحكة رائعة فبان صف اللؤلؤ الأسفل من فمها، واستراح على شفتها اليسرى، واستقامت في جلستها في حضني، حتى كاد فمي الذي يئن يمس مؤخرة

رقبتها العاري، بينما كنت أركز على إليتها اليسرى آخر ارتعاشة في أطول نشوة عرفها مخلوق بشري أو وحش إنساني.

وبعد ذلك تدحرجت لوليتا من على الأريكة، وقفزت على قدميها كي ترد على التليفون الذي كان خليقًا بأن يقرع إلى الأبد دون مجيب لو كان الأمر بيدي.

كانت تقف على قدم واحدة طارقة بعينها، ملتهبة الوجنتين، منثورة الشعر، وكان بصرها ينتقل بلا مبالاة بيني وبين الأثاث، فيما كانت تستمع أو تجيب على أمها في التليفون.

أما أنا فقد مسحت بمنديل حرير العرق من على جبهتي، وأخذت أرتب ما تشعث من أجزاء الروب دي شامبر، بينما كانت لا تزال تحادث أمها وتجادلها تليفونيا.. وإذ كانت رنة صوتها تتعالى صعودا تسللت إلى الحمام.

* * * *

(١٤)

تناولت طعامي بنهم لم أعرفه منذ أعوام فلما عدت إلى المنزل، كانت لوليتا لم تزل غائبة فأمضيت الأصيل في التأملات السعيدة، وأنا كالجمل أجتر ذكريات ما حدث بيني وبين لوليتا في الصباح.

وشعرت بالزهو فقد سرقت عسل التشنج دون أن أضر بأخلاق القاصرة.. فلم يقع إطلاقًا أي ضرر.. لقد صببت فيها حسيا كل لواعجي ولكن دون أن أدنسها.. وهكذا ظلت لوليتا آمنة وظللت فما امتلكت بجنون لم يكن لوليتا الواقعية إنما كانت لوليتا خيالية خلقتها أنا.. وربما كانت أصدق من لوليتا الحقيقية.. لوليتا المجردة من الإرادة والشعور والحياة كانت تميس بيني وبين لوليتا الحقيقية على الأريكة.

شعرت بساعات الأصيل تطول في ذلك الكون المريب حيث بدت لي أشجار الدردار كما لو كانت تعرف سري.. وشعرت بشبق أقوى من شبق الصباح يدب في عروقي من جديد. فأخذت أضرع أن تأتي وأن تكرر مسرحية الصباح على الأريكة، بينما لا تزال أمها منشغلة في المطبخ، أرجوك يا إلهي أن تأتي فأنا أعبدها بشكل رهيب.

كلا إن كلمة (بشكل رهيب) هي تعبير خاطئ، فالطرب الذي ملأت به نفسي أحلام الملذات الجديدة لم يكن رهيبا، إنما كان شجيا، إنني أصفه بأنه شجي لأنني كنت أنوي أن أحمي بكل قوتي وحكمتي طهارة تلك الطفلة، هذا على الرغم من النيران التي تأججت في مكامن قابليتي الجنسية.

والآن اسمعوا كيف جوزيت على آلامي.. لقد عادت لوليتا، ولكن ليس وحدها بل معها جيرانها آل تشاتفيلد الذين اصطحبوها إلى السينما، فتناولنا العشاء على مائدة بالغت المسز هيز في تزينها.. وأثناء العشاء قيل لي أن فيليس تشاتفيلد بنت الجيران ستذهب غدا إلى مخيم صيفي للبنات لمدة ثلاثة أسابيع، وأنه تقرر أن تتبعها لوليتا يوم الخميس المقبل لتبقى في المخيم حتى موعد افتتاح المدارس.

فاجأني هذا النبأ مفاجأة شديدة، أليس معناه أنني سأفقد حبيبتي في الوقت الذي امتلكتها فيه سريا؟

ولكي أستر وجومي الشديد ادعيت وجع الرأس الذي ادعيته في الصباح وعزوته إلى ضرس ملتهب.

وسألت أمها: هل أنت متأكدة من أنها ستكون سعيدة هناك؟

فأجابتني: أجل، ستكون أفضل حالاً، فلن تقضي كل وقتها في اللعب إذ أن المخيم بإدارة شيرلي هولمز الأخصائية في تربية المراهقات، ولابد إنها ستعلم لوليتا الكثير من الأشياء والقواعد النافعة، وستعلمها على الأخص الشعور بمسئولياتها تجاه الآخرين.

وانتهى الحديث باقتراح من السيدة هيز بأن تذهب إلى بركة الماء، ولكنني تحججت بضرسي الملتهب وذهبت إلى حجرتي.

* * * * *

(١٥)

ذهبت لوليتا إلى المدينة لشراء ما تحتاجه من حاجيات المعسكر وبدت عند العشاء في أقصى حالات النشوة واعتكفت تطالع مجلات الكوميك، بينما اعتكفت أكتب بعض الرسائل، وأنا أفكر بمغادرة المنزل إلى مدينة ساحلية على أن أعود إليه عند افتتاح المدارس أي بعد أن تعود لوليتا من المخيم، حيث تأكدت من أنني لن أستطيع أن أعيش بدون هذه الطفلة..

وفي عشية السفر تناولت لوليتا عشاءها في غرفتها، فقد بكت بكاء شديدا بعد مشاجرة تقليدية مع أمها، ولم ترغب أن أرى عينيها المنتفختين، فقد كانت بشرتها من الحساسية بحيث كانت مآقيها تحمر وتنتفخ بعد كل فاصل بكاء.

لقد أسفت جدا لأنها ظنت أنها تؤذي بمنظر عينيها قِمم الجمال التي أحسها.. ذلك لأنني أحب تلك اللمحة القرمزية التي تنتشر بعد البكاء كورق الورد حول شفتيها، وأحب رؤية رموشها المبللة بالدموع، وهكذا فإن استحياءها قد حرمني من كثير من فرصٍ كانت تستطيع أن تمدني بالعزاء العذب.

استطعت قبيل يوم السفر أن أنفرد بلوليتا لبضعة دقائق وكانت في سروال صبياني قصير (شورت) وقميص شفاف فقلت لها كلاما أردته أن يكون دعابة، ولكنها لم ترد علي إنما زمت شفتيها وأصدرت همهمة غامضة ودون أن تطلع إلى.

فربت بخبث على مؤخرتها، وردت بأن ضربتني ضربة مؤلمة على ذراعي.

وفي المساء لم تتنازل بأن تتناول طعام العشاء مع والدتها ومع همبرت، إنما غسلت شعرها وذهبت إلى فراشها

لتطالع كتبها المضحكة، وفي صباح الخميس قادتها أمها بهدوء إلى مخيم البنات.

لو أن كاتبا بارعا كان يروي قصتي لقال (وإنني أترك لخيال القراء أن يتصور حالي) ولكنني لن أترك شيئًا لخيالهم وسأقول بأنني قد وقعت في حب لوليتا إلى الأبد، ولكنني كنت أعرف كذلك بأنها لن تكون لي لوليتا إلى الأبد. ففي شهر يناير ستبلغ الثالثة عشر وبعد سنتين لن تظل حورية مراهقة مسعورة، وإنما ستتحول إلى مجرد صبية. ثم إلى تلميذة جامعية.. وهكذا فإن كلمة (إلى الأبد) تشير فقط إلى هيامي وإلى لوليتا الخالدة الأزلية كما تنعكس في دمائي.. أعني بها لوليتا – البرعم الذي لم تتفتح أكمامه الوردية بعد، ولوليتا ذات الصوت الرفيع الرقيع والشعر العسلي الغزير، التي أستطيع ألا ألمسها وأشمها وأسمعها بكل جوارحي.

وهكذا تساءلت كيف سأستطيع ألا أراها لمدة شهرين كاملين؟. تساءلت هل أتنكر في ثوب امرأة عانس وأنصب خيمة قرب مخيم البنات؟

وهكذا سيضيع علي شهران من الحياة بقرب الجمال والرقة، ومع ذلك لا أستطيع أن أفعل شيئًا.

كان ما حدث صباح الخميس بمثابة قطرة عسل لم تمكث طويلاً في كأسها.

لقد قفزت من فراشي وأطلت من النافذة، إذ سمعت أصوات الرحيل ورأيت الحبيبة أمام الممر تظل عينيها بيدها من شمس الصباح، بانتظار أمها التي جاءت لتأخذها بسيارتها إلى المخيم، وإذ كادت تلج السيارة وهي تلوح بيدها مودعة الخادمة لويز تطلعت إلى الأعلى، ورأتني فانفلتت عائدة إلى البيت وسمعت قدميها تقفزان السلم فارتديت سروال بيجامتي وفتحت باب غرفتي على مصراعيه، وأنا أحس بقلبي يرقص فرحا حتى يكاد ينفجر، ولم تمض برهة حتى أطلت لوليتا وألقت بنفسها بين ذراعي، وأخذت فمها العذب البرئ يذوب تحت ضغط فكي، وأنا أضمها بقسوة.

وانفلتت مني عائدة. وعاد القدر يتحرك إذ تحركت السيارة بها، وقد كشفت عن ساقها الشقراء وهي تلج في مقعدها.

* * * * *

(١٦)

لم تزل راحة يدي عابقة بضوع لوليتا. لم تزل عابقة بضوع تحسسي لمكورات تلك المراهقة ولبشرتها الناعمة، عندما مضيت إلى غرفتها وفتحت خزانة ملابسها وغمرت وجهي بكومة الثياب المشعثة التي كانت قد لامست جسدها.. ووجدت بصورة خاصة رقعة من القماش ملطخة بلون قرمزي تفوح منها رائحة عرقها فتناولتها وضمتها إلى صدري.

وفجأة سمعت صوت الخادمة لويز وهي تناديني من تحت، ولما توجهت إليها قالت أن عندها رسالة لي وناولتني مظروفا فتحته بيدين مرتجفتين وقرأت فيه الرسالة التالية:

"ليست هذه رسالة إنما اعتراف فأنا أحبك. (هكذا بدأت الرسالة التي حسبت من خطها المشوش أن لوليتا هي التي كتبتها). لقد كتبت هذه الرسالة بعد أن استخرت الله في الكنيسة يوم الأحد الماضي فيما أفعل فألهمني ما أفعل الآن. ليس لي من مهرب عن ذلك.

لقد أحببتك من اللحظة التي رأيتك فيها. ولقد وجدتك حبيب حياتي أنا المرأة العاطفية التي تقاسي الوحدة.

أما الآن فقد أصبحت يا أعز عزيز تعرف الحقيقة بعد أن قرأت ما سبق. وهكذا فانا أرجو أن تزم أمتعك وترحل في الحال. أنني أأمرك هذا بصفتي صاحبة البيت التي تطرد مستأجرا. أجل إنني أطردك يا أحب حبيب فأذهب.

إنني سأعود هذا المساء ولا أرغب في أن أجدك في البيت، فأرجو أن ترحل في الحال، وألا تقرأ هذه الرسالة السخيفة إلى آخرها.

أن الموقف يا عزيزي واضح تماما... إنني أعرف بالتأكيد إنني لا أعني شيئًا بالنسبة إليك.. أجل انك تجد متعة في التحدث معي كما أنك أخذت تحب جونا البيتي. ولكنني ظللت كمية مهملة بالنسبة إليك أليس كذلك؟

بيد أني سأعتبرك إذا قررت أن قرأت اعترافي هذا، أقول سأعتبرك أسوأ من مجرم منحرف يغتصب طفلة إذا قررت بعد قراءة الرسالة أن تستثمر الأمر وتحاول أن تنالني.

وهكذا فأنت ترى يا عزيزي بأنك إذا قررت البقاء في البيت (وأنا أعرف أنك لن تفعل) فإن بقاءك سيعني شيئًا واحدا هو أنك تريدني بقدر ما أريدك، أي كشريكة حياة وأنا

مستعدة لأن تربط حياتك بحياتي للأبد وأن تكون أبا لطفلتي الصغيرة..

يا حبيبي أي عالم من الحب بنيته لك. خلال شهر يونيو هذا!! إنني أعرف كم أنت متحفظ.. وكم ستهزك جرأتي.

أنك يا عزيزي وقد أرويت فضولك الآن. إذ تجاهلت طلبي ومضيت تقرأ تلك الرسالة حتى لآخرها.. لا بأس.. مزقها وامض في سبيلك ولا تنس أن تترك لي عنوانك حتى أرد إليك ما يحق لك استرداده عن بقية الشهر. وداعا يا أعز حبيب وصلي من اجلي إذا كنت تصلي".

شارلوت هيز

كان لرد الفعل الأول الذي اجتاحني أثر تلاوتي الرسالة شعورا بالدهشة والشرود والإنكفاء.. ثم شعرت كأن يدا صديقة تربت على كتفي مهدئة.. فهدأت وخرجت من شرودي لأجد نفسي من جديد في غرفة لوليتا.. وكان هناك إعلان على صفحة منتزعة من مجلة، معلقة فوق حائط السرير، يمثل عريسا شابا ذا شعر أسود، وعينين زرقاوين.

وكانت (لو) قد رسمت بقلم هازل سهما متجها إلى وجه البطل وأضافت إليه بحروف كبيرة: (هـ. هـ) والواقع أن الشبه واضح جدا لولا فرق بعض السنوات.

***

(١٧)

حضرات القضاة: لست أستطيع أن أقسم بان الانفعالات والحركات المتعلقة بهذه القضية لم تخطر في بالي قبلا.. فلربما مرت علي لحظات أثرت فيها بشكل موضوعي مسألة الزواج من أرملة ناضجة مثل شارلوت هيز كيما يتيسر لي سبيل إلى ابنتها لوليتا.

بل أنني مستعد لأن أقول لمن يعذبونني بأنني ألقيت نظرة تقديرية على شفتي شارلوت القرمزيتين وشعرها البرونزي وجيدها المفتوح بشكل مغر وحاولت بشكل غامض أن أدخلها في أحد أحلام يقظتي.

إنني أعترف بهذا تحت وطأة التعذيب، ربما التعذيب الوهمي ولكنه تعذيب مخيف.

وعلى كل فإنني لم ألبث أن مزقت رسالة شارلوت وذهبت إلى غرفتي وأصلحت من حال شعري وأنا أفكر بالمداعبات التي يمكنني أن أفعلها مع لوليتا بصفتي زوج أمها، وتصورت نفسي أعانقها ثلاث مرات في اليوم وكل يوم.

ثم حاولت بمنتهى الحذر أن أتصور أن شارلوت كشريكة حياتي وفراشي. وأن أتصور نفسي كزوج يعمل من أجل أن يوفر لها أسباب الحياة والمتعة.

وكنت أتصور نفسي زوجا لشارلوت وأتصور نفسي وأنا أضع أقراصا منومة في شراب الأم والبنت حتى أستطيع أن أتمتع بالبنت طيلة الليل دون إزعاج. فلا يصيبني من ذلك

أدنى عقاب. فبينما يكون البيت مهتزا من شخير شارلوت، تكون لوليتا بين ذراعي.

ثم تصورت نفسي بأنني إذا تزوجت الأم، فإنني قد أستطيع حملها بواسطة تهديدها بالهجر على أن تتركني أقارب صغيرتها التي ستكون ربيبتي الشرعية الربيبة بنت الزوجة من أب آخر سابق.

وبالاختصار فقد كنت قبيل أن تعرض علي شارلوت هيز الزواج مثل آدم عندما خرج من الجنة وظل للوهلة الأولى بدون حول ولا قوة.

والآن انتبهوا إلى الملاحظة التالية الهامة:

لقد طغت شخصيتي كفنان على شخصيتي كجنتلمان بعد أن عرضت شارلوت الزواج علي وبعد أن تطورت الأحداث إلى قتل آباها.

وهكذا فإنني رغبة مني في أن أوفر على شارلوت ساعتين أو ثلاث ساعات من القلق وانشغال البال، على طريق ملئ بالمنعطفات، ربما تسبب لها حادثة تهدم أحلامي، نظرا لأنني أعرف إنها كانت تسوق سيارتها بسرعة جنونية في غمرة انفعالها، أقول إنني قمت بمحاولة فاشلة للاتصال

بها تليفونيا قبل أن تترك المخيم، ولكنني تأخرت فتحدثت مع لوليتا فأخبرتها وأنا أرتجف زهوا بسيطرتي على القدر بأنني سأتزوج من أمها.. وقد اضطررت أن أكرر النبأ مرتين لأن شيئًا ما كان يحول دون أن تكرس لي كل انتباهها، وسمعتها تهتف ضاحكة.

- أوه.. هذا رائع.. متى يكون لزواج؟

ولم أجب.

وبينما كانت الشمس تميل نحو الغروب، صببت لنفسي كأسا ثم كأسا ثالثة من مزيج الجن وعصير الأناناس، كيما أزيد من شجاعتي النفسية ثم أخذت أشغل نفسي بالحديقة المهملة، بينما كانت نظراتي تكنس زاوية الشارع بالاتجاه الذي ستأتي منه شارلوت.

وبعد قليل جاءت بسيارتها ودارت واختفت وراء البيت واستطعت أن ألمح وجهها هادئا وخطر لي إنها لم تعلم حتى تصعد إلى الطابق الأعلى، إذا كنت رحلت أم لا. وبعد دقيقة أطلت من نافذة غرفة لوليتا وألقت نظرة كشفت عما تقاسيه من قلق وعذاب، فهرعت أصعد الدرج واستطعت أن أصل إلى غرفة لوليتا قبل أن تغادرها.

(١٨)

وتزوجت الأم.

ولقد كان بودي أن تحضر اوليتا الحفلة فلقد كان وجودها خليقًا بان شجعني ويضفي على العروس بهاءها، ولكنني وافقت مع أمها على أن الأمر لا يستاهل انتزاع الطفلة من مخيمها المحبوب ولم يمض عليها فيه أيام معدودات.

ولقد اكتشفت أن شارلوت واقعية وإنها على الرغم من عدم قدرتها السيطرة على قلبها ودموعها، امرأة ذات مبادئ.

كانت امرأة ثرثارة تحب أن تحيطني بالدعابة ادى صويحباتها، وقد كانت بهجتها عظيمة عندما نشرت الصحيفة المحلية حديثا عقدته معي ونشرت معه صورتها، أجل لقد سرها ذلك وتغاضت عن خطأ الصحيفة إذ دعتها شارلوت هيز..

ولم يمض شهران حتى كانت قد أصبحت إحدى البارزات في مجتمع مدينة رامدال، باعتبارها زوجة المستر ادغار ه. همبرت الكاتب والرحالة المعروف.

ولقد أشعت في حديثي الصحفي بأننا (أنا وشارلوت) نعرف بعضنا بعضا منذ ١٣ عاما، وإنني قريب لزوجها الأول، بل ألمحت إلى أنه كانت لي علاقة غرامية بها منذ ١٣ عاما، والآن لنمض في سياق قصتنا الغريبة)

لابد أن القارئ يتساءل عما إذا كنت لم أعان سوى المرارة والقرف، إذا رفعت من مرتبة نزيل إلى مرتبة عاشق).

كلا، لم أشعر بذلك، بل ربما شعرت بما يدغدغ كبريائي وينزه غروري، ولكن الشعور الأوضح الذي راودني هو شعور الهزء والسخرية من السيدة هيز ومن إيمانها الأعمى بحكمة كنيستها وحكمة نادي الكتاب الذي تنتسب إليه، وتقاليدها الأدبية وتمسكها بمبادئ الأخلاق الاجتماعية بشكل متزمت، وإنني لا أذكر بهذا الصدد كيف ذعرت إذا وضعت يدي عليها عند عتبة غرفة لوليتا، فارتدت مبهورة قائلة:

- كلا.. كلا.. من فضلك:

فمن المعيب جدا في عالم الأخلاق الاجتماعية الجماهيرية أن تستسلم أم في غرفة ابنتها، حتى ولو كانت الابنة غائبة.

لقد حسن تحولها من أرملة مهجورة إلى عشيقة مظهرها وأصبحت ابتسامتها المتكلفة ابتسامة حقيقية مشعة بالهيام والسعادة وكنا نتناول قبل أن تأوي إلى الفراش عددا من كؤوس الويسكي، وكنت بمساعدة تلك الكؤوس أستطيع أن أتخيل الطفلة بينما أداعب المرأة، بل كنت أسلط خيالي على حواسي فأرى في شعر هيز، شعر لوليتا وأشم في ضوعها ضوع جسد لوليتا. وكنت أردد لنفسي وأنا أتملك زوجتي الفسيحة كالحياة بأن جسدها هو جسد لوليتا. وكنت أردد لنفسي وأنا أتملك زوجتي الفسيحة كالحياة بأن جسدها هو بيولوجيا أقرب مما يوصلني إلى جسد لوليتا، وكنت أعزي نفسي بأن أم لوليتا كانت شهية مثل لوليتا، عندما كانت تلميذة في مثل سن ابنتها اليوم، وقد حملت امرأتي على أن تريني صور طفولتها، حتى أستطيع أن أتبين كيف كانت لوليتا تبدو وهي طفلة..

وهكذا كنت في الفراش الزوجي اطل على زوجتي من نافذة الماضي البعيد لأراها بين الخيال مراهقة مسعورة كلوليتا، مستعينا بالظلام وأنا أجوس خلال مجاهلها.

لا أستطيع أن أخبركم كم كانت زوجتي المسكينة لطيفة ومرهفة فكانت في الصباح تلف نفسها في ثوبها الأحمر وتجلس إلى المائدة وتسند رأسها على راحتها وهي تتأملني بنظرات رقيقة وأنا ألتهم فطوري، وتجد في وجهي جمالا، رغم أنه أحيانًا يصاب بالتهاب الأعصاب.

وفي خلال الخمسين يوما التي عاشرتها فيها عادت المرأة المسكينة إلى مزاولة كثير من أوجه نشاطها المندثرة، فأشغلت نفسها بأشياء كانت قد نسيتها منذ زمن مديد، أو لم تكن في الأصل مهتمة بها. وأخذت زوجتي بالجهد العقيم المألوف عن الزوجات الصغيرات، وتمجد الحياة المنزلية عالمة علما مبهما بأنني قد عقدت علاقة عاطفية مع هذا البيت.

والواقع أن الأشخاص الوحيدين الذين عقدت شارلوت معهم علاقات ودية حقًا، قد كانوا أفراد أسرة (فارلو) الذين عادوا حديثًا من رحلة تجارية إلى الشيلي، فحضروا عروسا.

***

(١٩)

يجب أن أقول بعض الكلام الطيب عن زوجتي قبل أن يفوت الأوان.

لقد أدركت منذ البداية نزعتها الاستشارية، ولكنني لم أفكر في أنها ستكون غيورة بشكل جنوني من أي شيء غيرها احتل ويحتل حياتي ولقد أظهرت فضولاً ضاريا لمعرفة خفايا ماضي، وكانت تريدني أن أبوح لها بغرامياتي الماضية، حتى تدفعني إلى أن أهين من أحببت... كانت تريد تحطيم ماضي، ولقد حملتني على أن أخبرها بتفاصيل زواجي من فاليريا ولكنني اختلفت في روايتي أشياء كثيرة من أجل أن أرضي غرورها التافه.

وكنت كلما أمعنت في تصوير عشيقاتي السابقات في شكل مزر، كانت سعادتها تتعاظم.

لقد حدثتني هي عن جميع غرامياتها ابتداء من أول معانقة بريئة وانتهاء بآخر معانقة غير بريئة ولكن مغامراتها كانت نظيفة أخلاقيا بالقياس إلى مغامراتي، ولكنها كانت تتشابه في مؤثراتها الرخيصة القائمة في كيان حياتنا ونفسياتنا.

ولقد وجدت تسلية كبرى في التعرف على بعض العادات الجنسية الملحوظة، التي كانت شارلوت قد اكتسبتها، فقد كانت عادات جدبة وكانت تعتبر عبثي شيئًا غير لائق.

كانت هذه هي كل النقاط المهمة في سيرة حياتها العقيمة.

كانت قلما تتحدث عن لوليتا بأكثر مما تتحدث عن طفل أشقر فقدته وهو صبي، وكانت في بعض أحلام يقظتها تتنبأ بان روح ذلك الغلام الأشقر ستعود إلى الأرض في شكل غلام ستحمله مني.

ومع إنني لم أشعر بحافز إلى أن أعطي لوليتا شقيقًا من أمها، أن ذهاب الأم إلى مستشفى للولادة في الربيع القادم، ربما أتاح لي فرصة الانفراد مع لوليتا، وخاصة إذا تعقدت الأمور وتطلب الأمر إجراء العملية القيصرية للأم وتصورت كيف سأتمتع بمحاسن المراهقة المسعورة بعد أن أدس لها الأقراص المنومة.

لقد كانت تبغض ابنتها وترى فيها طفلة شقية متمردة سلبية قلقلة وعنيدة وكانت تبدي كرهها بتحطيم سمعة أبنتها حيثما تيسر لها.

(٢٠)

كان الجو في الأسبوع الأخير من يوليه شديد القيظ فكنت وزوجتي نذهب يوميا إلى بحيرة تبعد كيلومترات قليلة، ويخيل إلى بأنه يجب أن أصف بالتفصيل آخر مرة سجنا فيها معا في صباح أحد أيام الثلاثاء.

تركنا السيارة في المنطقة المخصصة لوقوف السيارات واخترنا طريقا مختصرا عبر غابة الصنوبر للوصول إلى بحيرتنا، وبينما كنا نسير وهي تجاذبني أطراف الشائعات عن غراميات إحدى جاراتها قالت لي:

- هل تعرف يا همبرت بأن حلما طموحا للغاية يراودني.

قالت هذا وخفضت رأسها كأنما هي خجلة من حلمها الطموح وأستطردت:

- أنني أتمنى الحصول على خادمة حقيقية مدربة كالخادمة الألمانية التي حصل عليها جيراننا آل تالبوت لتقيم معنا في البيت.

ولما قلت لها أن ليس في البيت من غرفة لإيوائها.

أجابت: أواه أنك لا تقدر طاقة بيتنا الاستيعابية حق قدرها. أننا نستطيع أن نضعها في غرفة لوليتا، وعلى كل حال فإنني أنوي تحويل غرفتها للضيوف فهي ثقب وليست غرفة.

شعرت بالدم يتصاعد إلى وجنتي وقلت لها:

- آه تعني لوليتا الصغيرة.. أخشى أن يكون لها أي مكان في وجودنا الجديد، فسأرسلها من المخيم رأسا إلى مدرسة داخلية ممتازة، ذات نظام شديد وتدريس ديني سليم، أجل لقد رتبت كل شيء فلا تقلق.

وكنا في هذه الآونة قد أشرفنا على البحيرة البراقة الأمواج، فقلت لها إنني نسيت نظاراتي في السيارة وأنني سأعود حالا.

لقد كنت دائما أظن أن رفع اليد بالضراعة يؤلف حركات مسرحية روائية انحدرت إلينا من شعائر القرون الوسطى، ولكنني لما قفلت عائدا إلى الغابة في حالة من القنوط بسبب ما سمعته من شارلوت أخذت ألوح بيدي إلى السماء قائلا: انظر يا ربي.. هذه القيود الجديدة التي تريد تلك المرأة أن تكبلني بها.

كانت الورقة الهامة في اللعبة هي جهلها بحبي المخيف الهائل لابنتها لوليتا وكنت ألحظ ضيقها لأن لوليتا تميل إلى، ولكنها ما استطاعت يوما أن تحدث بحقيقة مشاعري، ولو كانت زوجتي الأولى فاليريا مكانها لقلت لها:

اسمعي أيتها البدينة البلهاء.. أنا صاحب الأمر والنهي فيما ينفع ويضر لوليتا همبرت.

ولكنني ما كنت استطيع أن أقول لشارلوت حتى: (عفوا يا عزيزتي إنني لا أوافقك الرأي، أجل دعينا يا عزيزتي فرصة أخرى دعيني أكون معلمها الخاص لمدة عام.

والواقع أنه ما كان باستطاعتي أن أقول لها شيئًا بصدد لوليتا دون أن أكشف سري إذ إنها ستكون في هذه الحالة قادرة على أن تميز أي افتعال لحسن النية.

هذه هي الخواطر التي تضاربت في نفسي إذا وصلت إلى مكان السيارة حيث أقبلت على المضخة أنهل الماء متهافتا كأنما سيمدني بالحكمة والشباب والحرية والقدرة على حل المشكلة. ثم جلست على حافة الغاب وبانت لناظري من بعيد صبيتان في سراويل قصيرة، وفجأة خطر لي الخاطر أن

الحل الطبيعي يكمن في القضاء على السيدة هيز.. ولكن كيف يكون ذلك؟

ما من إنسان يستطيع أن يقترف ما يدعي بالجريمة الكاملة التي لا تثير فيها شبه ولا تترك عليها أثرا ولكن للإنسان أن يجرب، فربما تسنح الفرصة بذلك.

وعند هذا الخاطر عدت إلى البحيرة حيث كان المكان الذي تستحم فيه أنا وشارلوت وعدد من الجيران بمثابة شاطئ خاص لنا فقد كان محجوبا بنتوء صخري عن الأنظار ويهئ كما يقال مجالا للسباحة أو الغرق.

ولما وصلت المياه إلى ردفيها تبعتها فوجدتها تتهيأ بذراعيها المبسوطتين لأن تقذف بنفسها إلى العباب ثم ما لبثت أن اندفعت إلى الأمام مرسلة الرذاذ الكثير وأخذنا نمضي إلى منتصف البحيرة.

كانت شارلوت هيز تسبح معي بأقصى الاطمئنان بينما كان منطق شبقي إلى لوليتا يهتف في أذني بأن أقدم على الجريمة فهذا وقتها، ولكني لم أستطع. فتوجهت نحو الشاطئ. وتبعتني بينما نصيحة المنطق الشيطاني تهدر في أذني. كانت هذه النصيحة الصادرة من الجحيم تتعالى في

أذني بينما أخذت أدرك الحقيقة المحزنة وهي إنني لن أستطيع غدا أو بعد غد أو في يوم أخر أن أحمل نفسي على إنهاء حياتها.

ربما لو كنا في عام ١٤٤٧ بدلا من ١٩٤٧ لكنت قد دبرت أمرها بأن أدس سما في طعامها يوصلها إلى ذراع الموت بكل لطف ولكن ذلك لم يعد مستطاعا في هذا العصر الذي تقدم فيه التشريح الجنائي. ففي هذه الأيام يتوجب عليك أن تكون من علماء الطبيعة إذا أردت أن تكون قاتلا:

ولكنني لست بعالم ولست بقاتل ولم أستطع أن أكون أيا منهم.

حضرات المحلفين:

أن معظم أصحاب الشذوذ الجنسي الذين يلتمسون علاقات جسدية مبهورة مع فتاة مراهقة هم من أصحاب الشخصيات الغريبة وهم في ذلك غير مؤذين بل أنهم مودعون مسالمون مستكينون لا يطلبون من المجتمع أكثر من أن يسمح لهم بمتابعة سلوكهم غير المؤذي الذي يدعي بالسلوك الشاذ. كل ما يطلبون هو أن يزاولوا أعمال

انحرافهم الجنسي (التي هي غير مؤذية عمليا) الهادئة دون أن ينفض المجتمع والجهاز البوليسي عليهم بسوط العذاب.

إننا لا نغتصب الفتيات كما يفعل الجنود في الأيام الذهبية فنحن رجال مستكينون مهذبون تهذيب الطالب ونحن على ما يكفي من احترام النفس بحيث نسيطر على حوافزنا أمام الفتيات بينما نكون مستعدين أن ندفع سنوات وسنوات من عمرنا ثمنا لفرصة واحدة لملامسة مراهقة.

أجل لسنا بالقتلة.. فالشعراء لا يرتكبون جرائم القتل أبدا.. ونحن كالشعراء..

ايه! يا شارلوت العزيزة عسى ألا تبغضينني وأنت في دار الخلود وأنت بين الأرواح الخالدة هناك.

ولنعد لرواية ما حدث:

عدنا إلى الشاطئ وجلسنا على مناشفنا نتمتع بالشمس الساطعة ثم ما لبثت شارلوت أن تطلعت إلى ما حولها وأزاحت ثوب استحمامها واستلقت على بطنها لتغطي ظهرها فرصة تقبل المغازلات مني ومن الشمس.

قالت أنها تحبني وتنهدت تنهدا عميقًا. ثم جلست وأخذت تدخن ومالت نحوي وقبلتني بقوة بفم تفوح منه رائحة التبغ

اللاذعة وهنا سمعنا في الدغل القريب، ثم ظهرت جين فارلو تحمل عدة الرسم فقالت لها شارلوت:

لقد أخفتنا!

فقالت جين بأنها كانت تحاول أن ترسم منظر البحيرة، ولكن عبثا فهي رسامة غير موهوبة.

ثم تنهدت وقالت:

ذات مساء رأيت فتى وفتاة في مطلع العمر يتساقيان كؤوس الهوى وكان ظلاهما يمتدان امتدادا هائلاً في نور الغسق.

***

(٢١)

في الماضي كانت كل عادتي أن أظل أبكم عندما أكون حانقًا تخيف زوجتي وتهدم أعصابها فكانت تقول:

(أن ما يجنني هو إنني لا أعلم بما تفكر، عندما تكون في مثل هذه الحالة..).

لقد حاولت أن أكون صامتا مع شارلوت، ولكنها كانت تحطم صمتي بمعانقتي وتقبيلي، إنها امرأة مدهشة، فكنت

أتحجج بأن عندي ما أكتبه وأذهب إلى غرفتي بينما تمضي شارلوت في أعمالها مرحة لاهية لا يثيرها صمتي.

ها قد مر أسبوع من الظلال والغثيان على آخر زيارة لنا للبحيرة ولست أستطيع أن أتذكر في حياتي أسبوعا يعادله في الكآبة والقنوط ثم ما لبثت أن التمعت في الجو خيوط من الرجاء.

فقط أتذكر بأنني على ذكاء بديع وأن عقلي يؤدي وظائفه بنظام فمن الأجدى أن استخدمه، وقلت لنفسي بأنني إذا كنت أستطيع التدخل فيما تضعه شارلوت من خطط لمستقبل ابنتها التي تزداد سمرة وسعيرا في مخيم البنات، فإنني أستطيع استنباط وسائل غير مباشرة أنفذ منها عبر خططها إلى وطري وأهيئ لنفسي فرصة سانحة.

والواقع أن شارلوت بذاتها قد فتحت لي بنفسها ذات مساء بداية الطريق إذ قالت وهي تحدجني بنظرات والهة ونحن على مائدة العشاء.

- عندي مفاجأة لك، إننا ذاهبان نحن الاثنين في الخريف إلى بريطانيا.

وقالت لي وقد ظهرت عليها من معالم الدهشة أكثر مما توقعت:

- لماذا؟ ما السبب؟

كنت في ذلك الحين أمزق الفوطة الورقية بحركات لا إرادية إلا أن وجهم الباسم هذا قليلاً هدأ من روعها وهي تستمع إلي أقول:

- السبب بسيط. هو أن الزوجة لا تنفرد باتخاذ جميع القرارات حتى في بيت الزوجية الذي يضارع بيتنا من حيث كمال الانسجام فهنا، أمور من شأن الزوج وحده أن يبت بها، إنني أستطيع أن أتصور ما قد يخالج نفسك من انفعال فرح، أنت الأمريكية المعتدة بنفسك، والباخرة تعبر بك الأطلسي. أجل أستطيع أن أتصور انبهارك وأنت على الباخرة مع ملك اللحوم المثلجة أو مع إحدى عاهرات هوليود.

فعندما أردتني أن أقضي ساعات بعد الظهر عند البحيرة بدلا من اقضيها في التأليف الأدبي انصعت بسرور وتحولت من أجك إلى شاب مرح برنزي الجسم بدلا من أن أبقى

أستاذًا ومربيا وقورا وعندما جررتني إلى لعب البريدج واحتساء الويسكي مع جيرانك آل هارلي تبعتك صاغر.

ولقد لمست كيف إنني لا أتدخل في شيء عندما تقومين بتزيين بيتي كما لمست بأنني ألتزم الصمت وأنت تقررين أمور البيت وأن كنت أخالفك الرأي في بعض الحالات على إنني كما قلت لك حالات خاصة إلا إنني لا أستطيع أتجاهل الاتجاه العام إنني أحب أن تقودي أموري ولكن كل لعبة لها أصولها وقواعدها فانا لست كمية مهملة. إنني نصف هذا البيت وأن لي فيه صوتا وكلمة.

في هذه الأثناء دنت شارلوت إلى قربي وجثت على ركبتيها وأخذت تمسك بي من ساقي. وما لبثت أن قالت لي بأنها لم تنتبه إلى ذلك قبلا وأنها تؤمن باني سيدها واقترحت علي أن أخذها بين ذراعي وقالت أنها ستموت إذا لم أصفح عنها.

ملأتني هذه الحادثة البسيطة بنشوة عظمى فقلت لها أن القضية ليست قضية طلب الصفح بل قضية تغيير منهجها. فسكتت مستكينة. بينما قررت أن أمضي في استثمار تفوقي

من أجل أن أقضي شطرا طيبا من الوقت في التأليف. وفي التظاهر بالتأليف.

وبعد يومين من الحادثة كنت في غرفتي غائصا في الكرسي المريح عندما نقرت شارلوت على الباب ودخلت يا إلهي ما أبعد الفرق بين حركاتها وحركات لوليتا التي كانت تدخل إلى غرفتي بسروالها الرجالي وهي تتضوع برائحة خمائل جزيرة المراهقات السحرية بينما كانت تقدم رجلا وتؤخر أخرى. ولكن بحركات متدلعة فاتنة. تكشف عن زوايا من صدرها الكاعب عبر القميص الذي لم تكن تقفل كل أزراره.

حاولت أن أتظاهر بالنوم، ثم تظاهرت بانني غارق في الكتابة فاقتربت بحذر وجلست على حافة الكرسي وخيل إلى إنها تتضوع بنفسي العطر الذي كانت تستخدمه زوجتي الأولى وقالت لي:

هل تحب أن أعد لك شيئًا خاصا للعشاء.. أن جون وجين هارنو سيزوراننا الليلة.

وأجبتها مغمما فقبلتني عند أسفل شفتي قبلة قائلة إنها ستعد كعكة كبرى ثم تركتني لوحدتي..

(٢٢)

اعتقد أنه كان قد مر أسبوع على استحمامنا الأخير في البحيرة، عندما تلقت شارلوت ردا من المدرسة الداخلية جاء فيه أنها قد تأخرت في طلب تسجيل ابنتها ولكن إذا جاءت بها إلى المدرسة في يناير فإن الإدارة قد ترتب أمر قبولها، وفي اليوم التالي ذهبت بعد الغداء لمقابلة طبيب العائلة وهو شخص ودود لطيف مهذب للغاية، ولكن تهذيبه يخفي جهله الطبي فهو يعتمد على إعطاء أدوية معينة لمختلف الحالات.

وكنت في حالة من مغبطة الطاغية فكان قرب لوليتا إلى رامديل بمثابة ينبوع أخذت اغتراف منه النشوة، ولقد أردت أن أعد نفسي إعدادا كاملا لهذا الحدث، وهكذا فقد بدأت حملتي قبل أن تتخذ شارلوت قرارتها القاسية بإبعاد لوليتا. فكان علي أن أكون متأكدا من إنني سأمتلك من الوسائل ما يمكنني من أن أهيئ نوما عميقا للوليتا وأمها بحيث لا تستطيع ضجة أو لمسه أن أوقظهما من نومهما كل ليلة منذ أن تعود لوليتا إلى أن تأخذها المدرسة مني.

وعلى هذا الأساس ظللت طيلة شهر يوليو أجرب مختلف أقراص المساحيق المنومة على شارلوت المغرمة

بابتلاع ما يقدم لها من حبوب وكانت قد ظنت أن آخر حبه منومة أعطيتها لها هي حبة لتسكين أعصابها أما الحقيقة فإن الحبة قد أفقدتها الوعي عدة ساعات عمدت في أثنائها إلى رفع صوت الراديو إلى مده الأعلى وإلى قرصها وتقبيلها وزحزحتها وتعريتها وتحريكها، ولكن ما من شيء من ذلك استطاع أن يخل من انتظام أنفاسها وأن يوقظها من سباتها العميق هذا بينما كانت في العادة تستيقظ متوثبة كالحصان عندما أقبلها مثلاً قبلة خفيفة.

ومع ذلك فإن نتيجة ذلك القرص المنوم لم تقنعني فأردت شيئًا أدعي إلى اطمئناني. فذهبت إلى طبيب العائلة وقلت له أن الوصفة الأخيرة لمعالجة أرقي (وهي الوصفة التي جربت حبوبها على شارلوت) لم تنفع في إزالة أرقي. وقد دهش لذلك ورفض أن يصدقني مقترحا أن أجرب الحبوب ثانية. وحاول أن يغير الموضوع فأراني صورة ابنته وهي في سن لوليتا. غير إنني تنبهت إلى قصده وألححت عليه في أن يكتب وصفة أقراص منومة أشد مفعولا. وبعد أن أعيته الحيل معي قال لي أنه سيصف لي حبوبا فعالة حقا. وفعلا أخرج من خزانته أقراصا بنفسجية

اللون قال عنها آخر المبتكرات الطبية فقد استنبطت ليس لمداواة أرق الذين يمكن مداواة أرقهم بسطل من الماء أنها لمداواة أرق الفنانين الذين لا يستطيعون النوم حقا.

فرحت إذ جازت خدعتي على الطبيب. ذلك إنني أحب أن أخدع الأطباء، إلا إنني كتمت معالم فرحي. وأخذت الحبوب وأنا أتظاهر بالشك.

غادرت عيادة الطبيب وأنا في نشوة عظمى أمسك بمقود سيارة زوجتي بأطراف أصابعي في حركة تعكس اعتدادي وثقتي واطمئناني وسروري. ورأيت الدنيا تضحك لي في كل مكان.

كنت قبل زيارتي هذه للطبيب بيوم واحد قد أنهيت العزلة التي فرضتها على نفسي، وهكذا فقد أطلقت صيحة تعبر عن فرحي بعودتي إلى البيت، عندما رأيت شارلوت في الصالون ترتدي جونيلتها الكستنائيه والقميص الأصفر اللذين ترتديهما عندما قابلتها للمرة الأولى وكانت منحنية تكتب رسالة، فأطلقت من جديد صيحة الفرح ووجدتها تتوقف عن الكتابة وتجلس جامدة لبرهة، ولم تلبث أن دارت وأسندت معصمها على ظهر كرسيها، فبدأ وجهها وقد شوهت

الانفعالات معالمه مخيفا لا يسر.. وما لبثت هذه الهرة العجوز الأم الكريهة المتسلطة والكلبة العريقة، أن صاحت في وجهي:

- أن شارلوت البلهاء لم تعد ألعوبة في يدك.. إنها.. إنها. وتوقفت عن الكلام وهي تبتلع لعابها ودموعها، ثم استأنفت هجومها:

- انك وحش رهيب.. أنك مجرم عتل زنيم وغد، وحاذر أن تقترب مني فسأصرخ مستنجدة.. هي ابتعد.

ولعل مما لا يؤخر أو يقدم أن أسجل عنا ما غمغمت به ردا عليها.. بينما استطردت تقول:

- إنني ذاهبة الليلة وسأترك لك البيت كله.. ولكنك لن ترى بعد الآن تلك الطفلة البائسة.. هيا اخرج من أمامي.

لقد أطعتها أيها القارئ العزيز، وصعدت إلى الغرفة التي كنت أعتزل فيها ووقفت هناك جامدا لبرهة وأنا أتأمل الصندوق الذي يحتوي على أوراقي السرية منتهكًا مفتوحا مخلوع القفل.. وتوجهت من الغرفة إلى مخدعي، حيث

أخرجت دفتر مذكراتي من مخبئه تحت الوسادة ووضعته في جيبي، وتسللت إلى المطبخ، حيث فتحت زجاجة من الويسكي. كانت شارلوت لا تستطيع على حد علمي أن تقاوم إغراء الويسكي ولهذا فقد حملت الزجاجة إلى الصالون وتوقفت في مدخل الباب قائلا بهدوء..

- شارلوت انك تهدمين حياتي وحياتك.. فلنكن متعقلين متمدنين.. انك مجنونة يا شارلوت وكل ما في رأسك هو نتيجة تورك وأوهامك فالمذكرات التي كانت مخبوءة في الصندوق ليست سوى مقتطفات من رواية أؤلفها. أما اسمها واسمك فقد جاءت فيها بمحض الصدفة، فقد كانا الوحيدين اللذين خطرا لي.. فكري مليا بالموضوع من جديد وسآتيك بقدح.

لم ترد ولم تلتفت، إنما مضت في كتابتها.. كانت قد بدأت رسالة ثالثة إذ رأت بجانبها مظروفين مغلقين معنونين. على إنني عدت إلى المطبخ وملأت قدحين وأنا أفكر قائلا لنفسي لتقرأ المذكرات مرة ثانية فلا يهم، طالما تمسكت بزعمي إنها مقتطفات من رواية خيالية والأحسن أن أضيف

على تلك المذكرات شيئًا آخر أتركه في متناول يدها لتقرأه على أن تكون محتوياته متصلة بمحتويات المذكرات وبشكل يعزز ادعائي. وفتحت الثلاجة وصورة لوليتا تتراقص أمام عيني وأنا أخرج مكعبات الثلج. وحملت القدحين ووقفت عند باب الصالون وقلت لها من فرجته الضيقة:

- لقد صببت لك قدحا.

ولكن الكلبة المسعورة غضبا لم تجب فوضعت القدحين قرب التليفون الذي بدا يرن. فتناولت السماعة لأسمع صوتًا يقول:

- إنني لازلي طومسون.. لقد دهست سيارة جامحة زوجتك السيدة همبرت.. والأفضل أن تأتي حالا!!

فأجبته بشيء من التأدب بأن زوجتي على خير ما يرام ثم فتحت الباب وأنا لا أزال ممسكًا بالسماعة وقلت:

- هناك رجل يقول انك قد قتلت دهسا يا عزيزتي..

وتطلعت إلى الصالون.. فلم أجد لشارلوت أثرا فيه.

***

(٢٣)

وهرعت إلى الخارج ليواجهني الشارع بمنظر فريد.. فقد رأيت سيارة باكارد سوداء قد تسلقت حاجز حديقة البيت المقابل ووقفت تلتمع بهيكلها في أشعة الشمس وقد انفتحت أبوابها كالأجنحة واستلقى بجانبها على العشب كجثة من شمع رجل وجيه عجوز. وقد عرهت إليه مربية الجيران تحمل بيدها قدحا من الماء.. فلم يكن ميتا ولم يكن مغمي عليه إنما كان مصابا بنوبة قلبية أنه والد فردريك بيل. سائق سيارة الباكارد.. وتطلعت إلى اليسار فرأيت بقايا المخلوقة التي كانت تدعى شارلوت هيز.. أعني شارلوت همبري زوجتي.

لقد طرحتها السيارة الجامحة أرضا ودحرجتها أمامها عدة أقدام بينما كانت مندفعة لتلقي في علبة البريد الرسائل الثلاث التي كانت قد انتهت من كتاباتها.. وقد التقطت طفلة هذه الرسائل وسلمتها لي فمزقتها أربا أربا ودسستها في جيب سروالي.

وما لبث أن جاء آل فارلو وثلاثة أطباء لمعالجة الموقف.. أما أنا فقد تظاهرت بالذهول وهم ينقلون الجثة المشوهة مما اضطرهم إلى جري إلى البيت ووضعي في

فراش لوليتا. لقد أشرف جون وزوجته جين على أمري وقد آويا إلى غرفتي لقضاء الليل معي.. وما أعرفه هو أنه ربما لم يمضيا في مخدعي ليلة تتصف بالبراءة التي يتطلبها الموقف الجدي.

ليس هناك من سبب يدعوني للإطالة في وصف إجراءات الجنازة والجنازة بالذات، ويكفي أن أقول إنها كانت هادئة كحفل الزواج بالضبط ولكنني يجب أن أشير إلى عدة حوادث تتصل بما جرى بعد أربعة أو خمسة أيام من موت شارلوت.

لقد أمضيت ليلتي الأولى كأرمل وأنا مخمور إلى حد إنني نمت كطفل نمت نوما عميقًا كالطفلة لوليتا التي كانت تنام في الفراش.. وفي الصباح سارعت إلى تفقد قصاصات الرسائل الثلاث التي دستها في جيبي.. كانت إحدى الرسائل موجهة إلى لوليتا وكانت الثانية تشير إلى رغبة شارلوت في الهرب مع لوليتا إلى مسقط رأسها خوفا أن تتعرض لوليتا لخطر من أحد الذئاب.. أما الثالثة فكانت عبارة عن طلب تسجيل لوليتا في مدرسة داخلية للبنات اشتهرت بصرامة نظامها بحيث كانت تلقب باسم (إصلاحية البنات).

وفجأة فرغ البيت فقد ذهب جون لمقابلة أحد زبائنه وذهبت جين لإطعام كلبها.. وهكذا حرمت من رفقة الزوجين اللذين كانا يخشيان أن أنتحر حزنًا إذا تركت لوحدي! ولم يلبث أن جاء لترلي وزوجته لويز بإيعاز من جين ليبقيا في صحبتي. ولما جاء جون وجين فارلو أريتهما في لحظة إلهام صورة صغيرة لشارلوت كنت قد وجدتها بين أمتعة الراحلة كانت الصورة تمثلها والهواء يعصف بجدائلها وكانت تبتسم.. وكان المكتوب على ظهر الصورة يشير إلى إنها التقطت عام ١٩٣٤ في مدينة بيسكى فقلت لهما إنني كنت في ذلك العام في زيارة أعمال للولايات المتحدة وأنني أمضيت الصيف في بيسكى والتقيت بشارلوت وعقدت معها علاقة غرامية منذ ذلك الحين، وعندما عدت إلى أوروبا بقينا نتراسل بواسطة صديق مات الآن ثم جئت إلى بيتها وتزوجت منها.

وهمست جين بأنها كانت قد سمعت إشاعات عن الموضوع.. فهز زوجها رأسه ولم يلبثا أن غادر البيت بعد ساعات وما كادا يختفيان حتى جاءني قسيس المنطقة فحاولت جهدي أن أجعل المقابلة مختصرة ولكن دون أن أمس مشاعره أو أثير شكوكه وأكدت له بأنني سأكرس كل حياتي

لهناء الطفلة لوليتا وأريته صليبا قلت له أن شارلوت كانت قد أعطتني إياه عندما كنا صغيرين ثم ذكرت له أن لي ابنة عم تقيم في نيويورك وإنها عانس محترمة وإنها تتولى الإشراف على تدريس لوليتا في مدرسة لائقة.

أجل كم كنت داهية معه..

ومن أجل ليزلي ولويز وبأمل أن ينقلا النبأ إلى جون وجين (وقد فعلا) قمت بمكالمة تليفونية وهمية مع مخيم البنات حيث تقيم لوليتا ولما جاء جون وجين عاجلتهما وأنا أتظاهر بالحيرة والاضطراب بأن لوليتا قد ذهبت مع بنات صفها في رحلة خلوية تستغرق خمسة أيام.. ولا يمكن لأحد أن يتصل بها لينهي إلى النبأ..

وتساءلت جين: يا إلهي ما العمل؟

فأجابها جون بأن الأمر بسيط لا يتطلب أكثر من الاتصال بشرطة كليماكس ولن يمضي ساعة حتى يعثر رجال الشرطة على البنات الجوالات وواصل حديثه قائلاً.

- اسمع ما قولك في أن أذهب بسيارتي إلى المخيم في الحال لأبلغ الصغيرة الأمر.

وكرر الاقتراح بشكل يوحي بأنني أستطيع أثناء ذلك أن أنام مع زوجته التي ساندته بحرارة وبشكل يوحي بان الحرارة هي قبول منها بأن أمضي الليل بين أحضانها.

شعرت بأن هذا العمل سيفضحني فناشدت جون أن يترك الأشياء كما هي تمضي في مقاديرها.. وقلت له إنني لست في حالة تمكنني من أطيق رؤية الطفلة تبكي وتعول وتتعلق بأذيالي وحذرته من أن الصدمة قد تؤثر نفسانيا على مستقبلها كما ثبت من دراسات لعلماء النفس.

واستسلم جون قائلا:

- أن الأمر مرجعه إليك. ولكني أريد أن أعرف ما أنت فاعل بالطفلة؟..

فصاحت به جين:

- جون.. أنت تعرف أنها ابنته.. إنها ليست ابنة هارولد هيز ألا تفهم.. أن همبرت هو والد لوليتا الحقيقي.
- أجل فهمت.. أنني متأسف.. لم يخطر ذلك في بالي.
- أجل أن القضية باتت بسيطة.. أن همبرت أعرف الناس بمصلحة ابنته لوليتا.

وقلت لهما وأنا أتظاهر بالعطف الشديد بأني سأذهب بعد الجنازة مباشرة لاستعادة اوليتا وسأبذل كل جهدي كيما أعزيها واسليها.. وفي بيئة أخرى ولذا فربما سأصحبها في رحلة إلى كاليفورنيا أو نيومكسيكو.

لقد مثلت لهما هدوء اليائس القانط بحيث أن جون وجين أشفقا على حالي وأخذاني إلى بيتهما حيث أويت إلى صالونهما.

وبمناسبة الكلام عن هؤلاء الطفيليين المتطوعين للتدخل في شئون الجيران يجب أن أشير إلى أن بيل الذي أزهق روح زوجتي قد زارني وقد كسى وجهه بالحزن والرزانة فبدا كمعاون الجلاد.. كالمعاون المبتدئ.. وبعد أن ذكر لي أن له ابنتين تدرسان مع ابنة زوجتي، فرش رسما بيانيا عن الحادث ملأه بالأسهم ليثبت لي بأنه لا ذنب له فقد كان يحاول أن يتحاشى أن يدهس كلبا عندما اندفعت زوجتي فجأة ودون احتراز أمام السيارة فكان ما لابد له أن يكون. ولما وافقته على أن الذنب ليس ذنبه قال لي وهو ينفخ أنفاسه الحارة من منخريه بشكل ذكرني بمخارج اللهيب من الطائرات النفاسة.

قال لي بهيئة المتكارم النبيل أنه مستعد لكي يدفع مع ذلك نفقات الجنازة.

قال لي ذلك وهو يتوقع مني أن أرفض عرضه ولكني قبلته شاكرا فتراجع مدهوشًا وكرر لي العرض ببطء وتردد وارتباك فشكرته ثانية وبحرارة أشد من المرة الأولى.

ونتيجة لهذه المقابلة المسحورة الفاتنة حلت للحظة العقدة التي خدرت روحي. ولا عجب فلقد رأيت في بيل عميل القدر ومبعوثه. هذا الذي ربت على كتفه وأنا أشعر بأنني ألعب بأشلاء القدر.. وشعرت بتحول عجيب مفاجئ في نفسي بعد أن قابلت أداة القدر في إزالة شارلوت من الوجود وتصورت ظروف الواقعة فأدركت بأن بيل والسيارة والكلاب ليسوا فقد الأدوات التي نفذت إرادة القدر فقد كنت شريكًا خبيثًا خفيا للقدر.. فلو لم أكن من الحمق بحيث أسجل انطباعاتي السرية في دفتر مذكراتي لما قرأت شارلوت حقيقة ما يدور في خلدي ولما اعتملت نفسها بالغضب والخوف والانفعال بحيث اندفعت إلى صندوق البريد وهي كالعمياء فدهستها السيارة.

(٢٤)

كان المطر ينهمر مدرارا مصحوبا برياح عاصفة بينما كنت أتطلع حولي ملقيا نظراتي الأخيرة على مدينة رامزدال ذلك إنني مدفوعا بحافز مغامرات خفية قررت أن أغادر المنزل الداكن الذي كنت قد استأجرت غرفة فيه ثم تزوجت صاحبته وترملت وكل ذلك في بحر شهرين. وبينما كان جون يضع أمتعتي في السيارة ذهبت عدة مرات إلى البيت وهنا حدثت واقعة غريبة لا أدري إذا كان لها من مكان في هذه الصفحات.

ولست أدري إذا كانت هذه الصفحات قد عززت في ذهن القارئ تأثيري على النساء من مختلف الأعمار والبيئات بفضل مظهري الذي هو بين بأس الرجولة وبراءة الأطفال. وبفضل جمال ملامحي.. فكانت لوليتا البالغة تستكين لسحري أما لوليتا المراهقة الناضجة فقد أحبتني بعاطفة ناضجة أنانية أأسف لها واحترمها بشكل لا يؤاتيني القدرة على التعبير عنه.

الحادثة الغريبة هي أن جين فارلو المختلة الأعصاب حتما الجميلة التي أنمت في نفسها ميلاً قويا نحوي أمسكت

جبيني بأصابعها المرتجفة دائما والدموع تترقرق في عينيها الزرقاوين البراقتين وحاولت بدون نجاح أن تلصق شفتيها بشفتي بينما كان زوجها ينقل أمتعتي وقالت متوسلة:

- اعتن بنفسك وقبل ابنتك عني..

وفرقع الرعد في السماء وهز جوانب البيت بينما استطردت تقول:

- ربما قد تؤاتينا الأقدار على أن نلتقي في ذات يوم وفي ظروف أقل بؤسا.

(ايه يا جين أغفري لي ما كتبته سواء أكنت حية في هذا العالم أم ذرة ضائعة في العالم الآخر).

صافحتها في الشارع الذي يغتسل بسيل مدرارا من المطار وفي جو ينبئ بالطوفان. ومضيت بالسيارة تماما فوق الرقعة التي وجدت فيها شارلوت جثة هامدة بعينيها الطويلة الأهداب اللتين كانتا لا تزالان مخضبتين بالدموع.

***

(٢٥)

قد يظن القارئ أن رحيل شارلوت قد أزال جميع العقبات في طريقي إلى ما ينتهي من المسرات التي تنتظرني ولكن الأمر لم يكن كذلك.

فبدلا من أن اصطلي بشعاعات الحظ الباسم ركبتني مختلف أنواع الشكوك والمخاوف الأخلاقية فتساءلت مثلاً: ألن يثير دهشة الناس أن تكون لوليتا قد أبقت بعيدة عن عرس والدتها ثم عن جنازتها؟

وثمة شيء آخر: إذا سلمنا جدلاً بأن يد المصادفات قد لا تتجاهل لحظة في تكفير ما فعلته يدها فتغدق على لوليتا حنوا سابقا لأوانه على يد أشخاص يدخلون مسرح الأحداث من حيث لا أريد.

كانت خطتي في أخذ لوليتا إحدى بدع الفن البدائي فهي تقضي بأن اتصل بمخيم البنات لأخبر لوليتا بان عملية جراحية ستجري لأمها في مستشفى وهمي بعيد وبأن أخرجها من المخيم وأصطحبها من فندق ريفي إلى آخر وأنا أخبرها بين اليوم والآخر بأن حالة أمها تتحسن. إلى أن أبلغها إنها قد ماتت..

ولكنني إذا كنت متجها بسيارتي صوب المعسكر ازداد قلقي ولم أطق مجرد التفكير باحتمال عدم وجود لوليتا في المخيم. أو التفكير بأنني قد أجد لوليتا أخرى مذعورة تطالب معونة أصدقاء لعائلتها قد لا أنسجم معهم. ولا أستطيع تدبير شأني وإياهم.

وأخيرا قررت أن أقوم فعليا بتلك المكالمة التليفونية التي تظاهرت منذ أيام بأنني قمت بها، وكان المطر ينهمر بشدة انحدار المياه من أفواه السماء، عندما توقفت في إحدى الضواحي عند محطة بنزين وتحدثت منها مع مخيم البنات، حينما أجابتني مديرة المخيم بأن لوليتا قد ذهبت يوم الاثنين مع رفيقات لها في رحلة إلى التلال، ولكن المتوقع أن يعدن في ساعة متأخرة لايوم. واقترحت أن أرجئ مجيئي إلى الغد وسألتني عن الخطب فقلت لها بشكل غامض أن أم لوليتا قد دخلت المستشفى وأن حالتها خطيرة، إنما يجب إعدادها كيما تذهب معي غدا.. وافترقنا على التليفون ونحن نتبادل التمنيات الحارة.

أمضيت بعد الظهر في ضاحية باركنجتون شراء أشياء جميلة للوليتا.. أشياء جميلة تثير ابتهاج المراهقات، ولم لا

أشتري لها كل جميل؟ أليست هي لي، كما كانت بياتريس للشاعر دانتي؟

لقد اشتريت لها أجمل الملابس الداخلية الحريرية وأنا أتصور مقياسها كما عرفته، إذ ليس معقولاً أن تكون قد كبرت كثيرا في أيام معدودات وبالإضافة إلى معرفتي بقياساتها فقد كنت أستطيع أن أتصورها أمامي تميس دلالاً برقة كجسد نوراني وأستطيع أن أتصور ثدييها البارز الذي مس مرة أو مرتين صدري عند موضع القلب تماما وأستطيع أتمثل ثقلها الدافئ في أحضاني.. أنني أكاد أكون مع لوليتا كما تكون الأم مع ابنتها فانا أعلم كل شيء عنها.

وفيما بعد تأكدت عمليا من صحة تقديراتي.

بعد أن انتهيت من مشترياتي تطلعت إلى الدليل السياحي واخترت بلدة ريفية تبعد أربع ساعات بالسيارة عن مخيم البنات وقررت أن تكون هذه البلدة المرحلة الأولى من جولتي مع لوليتا.. وقد أردت أن أتلفن إلى الفندق الريفي هناك لأحجز غرفتين ثم خفت أن تفضحني إنجليزيتي المسكرة فقررت أن أبرق إليهم.

***

(٢٦)

استطعت أن أختلس من سهادي ساعة نمت فيها مجهدا وافقت في الساعة السادسة صباحا بعد حلم مزعج رأيت فيه نفسي مع خنثى مكسوة بالشعر.

وأوقفت سيارتي تحت ظلال أشجار الصنوبر وسألت عن مكتب المخيم فدلني عليه يافع كان يلعب لوحده في وحدة تامة.. وتقابلت مع مديرة المخيم وهي امرأة ذات شعر أشعث ونظرات قاسية أخذت تتفحصني بها تفحصا شديد الوطأة، ثم أبلغتني بأن لوليتا قد حزمت أمتعتها وأنها مستعدة للرحيل، وأنها تعرف أن أمها مريضة، وأنها تعلم كذلك أن حالتها ليست خطيرة، وسألتني إذا كنت مهتما بمقابلة المشرفات على المخيم أن تفقد غرف نوم البنات؟

ثم ما لبثت الشمطاء أن جلست إلى منضدتها وسحبت درجا وتناولت قطعا نقدية صبتها في يدي المرتجفة.. إنها ما تبقى من مصروف لوليتا.. وناولتني شهادة للوليتا منها مع تقرير عن سلوكها في شهر يوليو وفيه تشير إلى إقبالها على السباحة والتجديف.

كنت أدير ظهري لباب المكتب المفتوح، عندما شعرت بالدماء تتدفق إلى رأسي.. لقد سمعت أنفاس لوليتا وسمعت صوتها قادما من ورائي وقد جاءت تجر حقيبتها الثقيلة.. وصاحت: هاي.

ووقفت جامدة تتطلع إلى بعينين بارقتين فرحتين، بينما افترت شفتاها عن ابتسامة تراوضها مسحة من البله، ولكنها مع ذلك كانت ابتسامة ساحرة مغرية..

رأيتها أنحف وأطول وللوهلة الأولى بدا لي وجهها أقل جمالاً من الوجه الذي رسمته في ذهني لها وظللت أحنو عليه في تصوراتي طيلة الشهر الماضي.

فقد بدت وجنتاها غائرتين كما بدا أن النمش قد تزايد على قسمات وجهها.

فكان الانطباع الأول الذي خامرني هو أن كل ما يترتب على أن أفعله بصفتي زوج أمها الأرمل هو أن أعطي هذه الصبية الشقية التي لوحتها الشمس مظهر فتاة وديعة وأن أوفر لها تعليما جيدا وبيتًا جميلاً.. ورفيقات من سنها قد أستطيع أن أجد بينهن حورية مسعورة ترضي!!!!!.

ولكن بلمحة عين تبدلت الصورة وانمحى كما يقول الألمان الخط الملائكي لنواياي (فالزمن يسبق غالبا خيالاتنا) واستعدت فريستي وعادت من جديد لوليتا خيالي. وسرعان ما طوقت عنقها بيد وأخذت باليد الثانية حقيبتها.. كانت لوليتا كتلة مشتهيات.. كانت تمثالاً من ماء الورد والعسل. وكانت ترتدي ثوبا شفافًا يكشف عن محاسنها وخطوط جسدها الأنيقة وعن ساقيها المخدشتين.

وداعا أيها المخيم المرح.. وداعا أيها المخيم السيئ الطعام.. وداعا أيها البواب.. بهذا كانت تنطق حركات يديها وهي تلوح لرفيقاتها وللمخيم وهي تستقر في جلستها بجانبي.

وما لبثت أن أهوت بكفها على ذبابة استقرت على ركبتها بينما كانت تعلك بحمية قطعة من اللبان ملأت فمها. وبعد أن انطلقت بنا السيارة عبر الغابة كمن تؤدي واجبا:

- وكيف حال أمي؟

فقلت لها أن الطبيب لم يعرف بعد حقيقة علتها وأن كانت تتعلق بمرض باطني، ولذا تقرر وضعها وقتًا ما في المستشفى للمراقبة. ولما قلت لها أن المستشفى هو في

ليبينغفيل، قالت أن الأمر سيكون رائعا إذا وصلنا إلى ليبينغفيل قبل التاسعة ليلاً.

فأجبتها بأننا يجب أن نكون وقت العشاء في برايسلاند على أن نزور ليبينغفيل غدا.. ثم سألتها عن أحوالها في المخيم وعما إذا كانت قد قضت وقتا طيبا؟

- أواه.. كان رائعا..
- هل أنت آسفة لتركك المخيم؟

ولما غمغمت غمغمة غير مفهومة قلت لها ألا تغمغم وأن تجيبني بكلام واضح.. قولي شيئًا ما.

- أي شيء يا بابا.. (مطت كثيرا بكلمة بابا بلهجة تهكمية).
- أي شيء قديم.
- حسنا ما قولك إذا دعوتك باسم (الشيء القديم العتيق)؟
- اخرسي..
- إنني أمزح.. قل متى وقعت في غرام أمي؟

- ذات يوم ستفهمين يا لوليتا الكثير من العواطف والحالات.. مثل الانسجام وجمال العلاقات الزوجية.

- طظ..

وخيمت فترة من الصمت البليد على هذه المحاورة قطعتها بقولي:

- أتعلمين إنني اشتقت إليك أشد الاشتياق يا لولو.

- أما أنا فما اشتقت إليك. لم أكن أمينة لعهدك، ولكن هذا لا يهم ذلك انك لم تعد تهتم بي على كل حال.. أواه يا حضرة.. أنك تسوق أسرع من أمي.

فخففت سرعة السيارة من السبعين إلى الخمسين وقلت:

- ولماذا تظنين بأنني لم أعد أهتم بأمرك؟

- حسنًا.. مثلاً انك لم تقبلني حتى الآن.. قل لي هل قبلتني؟

سألتني ذلك وأنا أتحرق في باطني إلى ذلك، وأكاد أموت شوقًا إلى ضمة منها ورأيت أمامي طريقًا فسيحا فملت

بالسيارة إلى جانب الطريق. وما كادت السيارة تقف حتى كانت لوليتا قد طارت إلى ما بين ذراعي..

على إنني اكتفيت بأن أمس مسا رقيقًا وبأقصى الورع شفتيها المنفرجتين الدافئتين، ذلك إنني لم أجرأ على أن أطلق لنفسي العنان ولم أجرأ على أن أدع نفسي تدرك من أن هذه هي بداية الحياة الرائعة التي انفتحت لي أبوابها بمساعدة من القدر.

كانت قبلتي لها بريئة خالية من كل شهوانية؟ ولكن لوليتا دفعت نفسها بفروغ صبر بفمها على فمي بقوة وأحسست بوطأة أسنانها الأمامية وتذوقت رضابها الممتزج بطعم نعناع اللبان.

كنت أعرف بان هذه القبلة بالنسبة إليها لم تن سوى لعبة بريئة وسوى تقليد لما علق بذهنها من مراسم الغراميات العامة، وكالعادة فإن حدود مثل هذه اللعبة هي حدود مانعة بحيث لا يستطيع الشريك الكبير الناضج أن يبقى فيها ضمن حدود البراءة.. ولهذا فقد خشيت كثيرا من أن أذهب في "اللعبة" إلى أبعد مما يجب وخشيت أن أتسبب في إخافتها وقرفها.. ثم فوق كل شيء كنت حريصا على أن أهرب بها

بعيدا عن متناول الصيادين السحرة.. فأمامنا ثمانون ميلاً يجب أن نقطعها لنصل إلى الفندق المبارك.

ومضنيا صامتين عبر البراري الصامتة إلى أن قطعت لوليتا الصمت:

- قل لي ألن يجن جنون امي، إذا علمت أننا عاشقان؟
- بحق الإله يا لوليتا لا تتحدثي هكذا..
- ولكننا عاشقان متحابان أليس كذلك؟
- لا أعلم شيئًا عن ذلك.. أترين السماء؟ اعتقد إنها ستمطر.. والآن ألن تحدثيني عن مغامراتك الصغيرة في المخيم؟
- انك تتكلم كالأستاذ الرزين يا بابا.
- هيا أنني أصر على أن أعرف.
- هل تهتز أعصابك بسهولة؟
- كلا.. حدثيني.
- دعنا ندخل إلى مكان منفرد وسأحدثك
- اسمعي يا لوليتا إنني أسألك جادا لا تهزلي.

- حسنا، لقد اشتركت بجميع أوجه النشاط التي عرضت لي..

- وبعد؟

- وبعد علموني كيف أعيش سعيدة مع الآخرين وكيف أنمي شخصية قوية.. كيف أكون شهية كالكعكة.

- تعلمت شعارات الكشافة القائلة إنني يجب أن أجعل حياتي مجموعة من جلائل الأعمال وأن أكون نافعة وأن أصادق ذكور الحيوانات.. وأن أطيع الأوامر..

- ولكنني لا أزال قبيحة التصورات قذرة الأفكار.. ولا أزال رديئة قولاً وفعلاً..

- أن ذاكرتك طيبة. ولكن اسقطي من كلامك التعابير القذرة والآن أهذا كل شيء؟..

- كلا.. لقد غسلنا ملايين وملايين الصحون.

- هل كان ذلك كل شيء؟

- كل شيء باستثناء شيء واحد.. لا أستطيع أن أخبرك عنه دون أن احمر خجلاً.

- هل ستخبرني به فيما بعد؟

- إذا جلسنا في الظلمة تركتني أتكلم همسا، فإنني سأفعل.. قل لي هل تنام في غرفتك القديمة، أم مع أمي في فراشها.

- في الغرفة القديمة.. أن أمك قد تضطر إلى إجراء عملية جراحية خطيرة.

- هل لك أن تتوقف عند حانوت بائع الحلوى.

ولحسن الحظ فلقد التهمت ما طلبته من حلوى بنهمها المعهود، إذ كنت أتحرك إلى الوصول بأسرع ما يكون إلى برايستون. ولما عدنا إلى السيارة قبلتها على عنقها فقالت:

- لا تفعل ذلك ولا تتغالظ علي أيها القذر.

ومسحت مكان القبلة بطرف كتفها، بينما قلت لها:

- متأسف.. فعلت ذلك لأني هائم بك ليس إلا.

- وأنا كذلك هائمة.

قالت ذلك بصوت يترقرق بالحنو وينم عن تأوه، ثم ازدادت اقترابا مني.. ومضيت بالسيارة فوصلت برايستون وقد لفها الغسق.. وكانت الريح دافئة على الرغم مما كان

يتخللها من رخات المطر.. ومررنا بدار للسينما ازدحم الجمهور أمام شباك تذاكرها فقالت لوليتا:

أوه إنني أريد أن أرى هذا الفيلم.. فلنذهب إلى السينما بعد العشاء.

فقلت لها بأننا قد نذهب: هذا مع أني أعلم تماما بأنها ستكون في الساعة التاسعة غارقة في نوم عميق بين ذراعي.

وأخذت ألف وأدور بحثًا عن (فندق الصيادين المسحورين) وقد تعبت من القيادة، بينما كانت معدة لوليتا تتلهف إلى وجبة العشاء..

وعندما أتذكر عنائي في البحث عن الفندق فإنني أضحك لتصرفي الصبياني فقد كانت هناك على طول الطريق عشرات الفنادق التي تعلن بأضواء النيون عن الغرف الفارغة لديها، الغرف الجاهزة لإيواء الباعة المتجولين والمساجين الهاربين.. وأخيرا وجدنا الفندق بمعجزة من معجزات الصدف وحمل حقائبنا حمال أحدب يعاونه صبي الفندق الزنجي وألقت لوليتا بنفسها على الأريكة العريضة وأخذت تداعب كلبا صغيرا ذا أذنين سوداوين، فكان يسترخي تحت يديها –ومن ذا الذي لا يسترخي، يا

قلبي. ولما شققت طريقي إلى مكتب الفندق قال لي الكاتب الأصلع العجوز وهو يصليني بشكوك خفية ويتطلع إلى الساعة:

- آسف لقد حجزنا لك غرفة بسريرين حتى السادسة والنصف، فلما لم تأت أجرناها.. فهناك مؤتمر ديني في المدينة.

وأجبته أن الأمر لا يهم إذا كان يستطيع إعطاءنا أية غرفة فإن ابنتي البالغة من العمر عشر سنوات مجهدة للغاية.

وتطلع العجوز إلى اوليتا التي كانت تستمع بشفتين منفرجتين إلى ما كانت تقوله لها سيدة عجوز تحيط برأسها بشال بنفسجي ولابد إنها مربية، فقال أنه سيعطينا غرفة بسرير مزدوج.

ولما سألت إذا كان لا يمكن تدبير أريكة تنام عليها ابنتي حاججني الكاتب بأن فراشهم المزدوج يسع أكثر من ثلاثة أشخاص وأن ثلاث سيدات وطفلة نمن ذات مرة في هذا السرير بالذات.. ومع ذلك فهناك أريكة سندبرها.. فقلت له: سندبر أمرنا بشكل ما.. ولقد تلحق بنا زوجتي.. ولكننا مع ذلك سندبر أمرنا.

وسجلت بيد المجرم الهادئة المطمئنة:

"الدكتور ادغار همبرت وابنته من سكان رامديل، وصعدنا نحو غرفتنا مجتازين الدهليز المعتم الذي يخيم عليه صمت الموت.. ورأينا الغرفة تضم سريرا ومرآة وخزانة بمرآة وكرسيين وطاولة. وشعرت بدافع يحثني على أن أضع خمس دولارات في يد غلام الفندق، ولكنني خشيت أن يثير الشكوك فأعطيته ربع دولار وأشفعته بربع آخر فانسحب وبقينا لوحدنا. بينما هتفت لوليتا:

- هل سننام في غرفة واحدة؟

لم تقل ذلك باستياء أو استنكار، إنما قالته بعنف ديناميكي كعادتها في كل سؤال..

- طلبت إليهم أن يصنعوا أريكة سأنام عليها أنا إذا أردت.

- أنك أحمق.

- ولماذا يا عزيزتي؟

- لأن أمي ستطلقك وستختفي، عندما تكتشف الأمر.

كانت لوليتا في كلامها مجرد فتاة ديناميكية، ولم تكن جادة وقد وقفت على بعد خمسة أقدام من حيث جلست وأخذت تتأمل نفسها في المرآة غير مدهوشة من منظرها لمشهدها المشعث فقلت لها:

- اسمعي يا لوليتا دعينا نتفق على الأمر الآن وإلى الأبد.. إنني أبوك ويجب أن أكون هكذا في نظر الناس لألف سبب وسبب والواقع إنني أشعر حيالك بحنان عظيم، وسأكون مسئولا عن أحوالك في غياب أمك إننا لسنا بأغنياء وسنضطر إلى أن نأوى غالبا إلى غرفة واحدة.
- ومعلومك أن شخصين يتشاطران غرفة واحدة ينتهي بهما الأمر حتما إلى.. نوع..
- نوع من المضاجعة غير المشروعة.. والفسق.

قالت لوليتا وهي تغنج متمايلة، ثم توجهت إلى الحمام. بينما غيرت قميصي المعروق وتفحصت أنبوبة حبوب النوم في جيب سترتي.. وأقفلت باب الغرفة.

ولما خرجت لوليتا من الحمام حاولت أن أعانقها بشكل عرضي.. وفي حنان مكبوت قالت لي:

- اسمع.. أتركنا من لعبة المعانقة هذه.. ودعنا نتمشى بدلا من ذلك..

اتجهت لوليتا نحو حقيبتها وأخرجت ثوبا جديدا ونضت ثوب السفر فبدت ركبتاها الجميلتان وارتدت الثوب الجديد بأناقة. ثم تسللت إلى ذراعي المفتوحين بانتظارها وهي تشع نضارة وأخذت تتفحصني بنظرات حانية غامضة من عينيها البراقتين اللتين لا تنمان عن طهارة.

وقلت لها وأنا أهمس وشفتاي بين شعرها:

- ما الضرر في التقبيل وما اعتراضك على القبلات؟

- إذا كان لابد أن تعرف فإن طريقتك في التقبيل خاطئة..

- هيا أريني الطريقة الصائبة حالا.

- كلا.. في الوقت المناسب.

وهبطت بصعوبة أعصابي فقد كدت أندفع إلى تجربة فجة وقبل الأوان. ولحسن الحظ انفلتت من بين ذراعي عائدة إلى حقيبة ثيابها فقد كنت أرتكب خطيئة قائلة.

توجهت إلى الحمام وأمضيت وقتًا طويلاً حتى أستعيد رباطة جأشي ومظهري الطبيعي.

وبعد أن تناولنا الطعام وانتهينا من الحلوى أخرجت الأقراص المنومة القرمزية اللون.. ولما سألتني عنها قلت لها أنها أقراص فيتامين تجعل الإنسان قويا كالثور شديد البأس كالفأس.. وتطلعت حولي فلما لم أجد من يراقبني وضعت قرصا في راحة يدي وتظاهرت بأنني ابتلعه. فمدت لوليتا يدها وتناولت واحدا وبلعته. وكان مفعول القرص سريعا فتبخرت فكرة الذهاب إلى السينما من مخيلتها ونسيتها ونحن نغادر غرفة الطعام وهي تتثاءب.. ولم كنا في المصعد ألقت رأسها على كتفي فقد كاد يقتلها النعاس.. بل إنني كدت اضطر إلى حملها حملاً إلى الغرفة.. وعندما وضعتها على حافة الفراش قالت لي بصوتها الناعس:

- إذا أخبرتك.. إذا أخبرتك هل تعدني بأنك لم تغضب وتحتج

- أوه لقد كنت فتاة مقرفة.. دعني أخبرك.

- غدا يا لوليتا غدا.. أذهبي إلى الفراش.

قلت هذا ووضعت مفتاح الغرفة في جيبي وخرجت.

(٢٧)

حضرات القضاة. سيدات المحكمة الجميلات! صبرا علي.. أخذت قسطًا من وقتكم الثمين.

هكذا حلت اللحظة العظمى. لقد تركت لوليتا لا تزال جالسة على طرف السرير وهي ترفع في الهاء ساقا فتكشف حتى عن طرف سروالها المشدود.. كعادتها فهي دائما مستهترة لا تستحي من كشف عرى ساقيها.

هذه هي الصورة التي اختزنتها في ذاكرتي وأنا أخرج من الغرفة بعد أن تأكدت من أن بابها لا يحوي مزلاجا داخليا بجانب القفل.. وأخذت أدغدغ المفتاح وأشعر بأنه يمدني برعشة جنسية، أخذت أضغط عليه حتى تحول إلى جزء من راحة يدي. لقد أصبحت لوليتا لي كلها وبعد عشرين أو ثلاثين دقيقة سأعود إلى الغرفة ٣٤٢ لجد حوريتي لأجد عروستي أسيرة لنومها العميق الصافي.

دعوني أوضح لكم بأن تلميحاتها إلى ما ارتكبته من فحشاء في المخيم لم تقلقني. ولم تخل بتوازني إيماءاتها لي بأنني أستطيع أن أفعل ما أشاء ذلك إنني كنت قد صممت

على أن أحافظ عليها، بل أن أكتفي بان ألامس خلسة في ظلمة الليل جسدها العاري المخدر.

كان طبيعيا وأنا ابن العالم القديم أن أعتبرها، عندما قابلتها أول مرة بأنها "طفلة لم تمس" وصافية كصفاء مفهوم "الطفلة العادية".

هذا المفهوم الذي بدأ يضفي البراء على الطفلة منذ نهاية عالم ما قبل المسيح فنحن غير محاطين في عصرنا الحضاري المتنور بالجاريات اللواتي هن في عمر الزهور، واللواتي يمكننا قطفهن كيفما اتفق قبل الحمام أم بعده، وعند الذهاب إلى العمل أو العودة منه، كما كانوا يفعلون أيام زمان، كما إننا لسنا نقتنع، كما كان يفعل الشرقيون بالخدمات الدافئة التي تقدمها متقدمات السن بين وجبة الطعام ووجبة الشراب.

على إنني طرحت هذه الأفكار جانبا.. فها هي لوليتا قد أصبحت ملك يميني، لي وحدي.. وها هو مفتاح الغرفة أعصره في قبضتي وأنا أتصور كيف سأعريها في نومها العميق.. سأتركها مرتدية فردة جورب وأفرشها على السرير وأمرغ وجهي على جسدها العسلي اللون.. وكان ظل من

الزغب يلتمع، تحت ضوء مصباح السرير الوردي، على رابيتها الناتئة.. وكان المفتاح البارد. مع خشبته الفاترة. في يدي.

بانتظار النصف ساعة أخذت أتجول في ردهات الفندق مبتهج الجسم مظلم الروح، متحاشيا الاحتكاك بالنزلاء، وفي إحدى الصالونات لمحت عددا من الناس معهم مراهقة في سن لوليتا إلا أن بشرتها أكثر بياضا.. كانت شهية مثل لوليتا فأخذت أرمقها بنظرات حادة مستورة، ولكنها لاحظت نظراتي فرفعت تتحسس وجنتها التي تسارعت إليها الدماء بينما أسدلت باليد الأخرى طرف ثوبها على ركبتها.. ثم ادارت كتفها إلى وفتحت حديثًا مع أمها التي تشبه البقرة.

غادرت المكان مسرعا وقد بدأت أعصابي تتوتر وأحسست بحاجة إلى الشراب ولكنني فضلت أن أتوجه إلى حجرتي.

كان نور الحمام يتسرب من الباب المشقوق وكان ضوء مصابيح الشرفة يتسلل بين ألواح الستائر، وكانت هذه الشعاعات المتشابعة تعبث في ظلام الغرفة فتكشف لي اللوحة التالية:

كانت حبيبتي لوليتا في ثوب النوم وقد توسطت السرير وأدارت لي ظهرها وكان جسدها المستور بالثوب الرقيق ملتويا على بعضه، بينما كانت ساقاها مكشوفتين وكانت قد وضعت الوسادتين تحت رأسها..

ويبدو إنني خلعت ثيابي ولبست منامتي بتلك السرعة العجيبة التي تتسم بها المشاهد المماثلة في الأفلام، حيث لا تسمح الرقابة بعرض تسلسل تغيير الثياب.. ولكنني ما كدت أضع ركبتي على الفراش حتى أدارت لوليتا رأسها نحوي وتطلعت إلى طويلا إلى عبر الظلمات الممزقة.. كان هذا شيئًا لم أتوقعه.. فقد كان المفروض أن يجعلها القرص الذي بلعته تنام نوما عميقًا لا يزعجه مرور فرقة عسكرية عبر الغرفة.. ولكن ها هي تحدق بي و ها أنا أسمعها تناديني بصوت أجش: "بربارة".. كانت تتكلم في نومها وهي بين اليقظة والمنام فجمدت في مكاني أرقبها، فما لبثت أن أصدرت آهة وعادت إلى وضعها السابق.. ومكثت أنتظر دقيقتين في حالة مريعة من التخوف فقد شعرت بأنني على حافة الهاوية ثم عاد تنفسها منتظما يوحي بأنه تنفس شخص نائم.. وأخيرا استلقيت على ما بقى من حافة الفراش

ووضعت طرف الغطاء على قدمي الباردتين فرفعت لوليتا رأسها من جديد وحدقت في وجهي.

ولست أدري إذا كان طبيب رامديل الذي أعطاني الأقراص دجالاً أم رجلاً داهية.. بل لا يهم إذا كان جاهلاً أم مكارا فالمهم إنني خدعت.

وعندما فتحت لوليتا عينيها من جديد أدركت واطمأنت اطمئنان كاذب سواء فعل القرص المنوم مفعوله فيما بعد أو لم يفعل.

عادت لوليتا فأدارت رأسها ببطء عني ودفنت وجهها في الوسادة بينما ظللت لا أتحرك على الحافة متطلعا إلى جدائلها وإلى الأطراف العارية من جسدها محاولاً أن أستقصي مدى عمق نومها، ومر بعض الوقت ولم يتغير من الوضع شيء فقررت بأنني أستطيع أن أخاطر بالاقتراب قليلا من وهيج جسدها الجميل المثير.. ولكنني ما كدت أنتقل إلى ملكوته الدافئ، حتى توقف صوت تنفسها وحل بي شعور مرعب أوحى لي بأن لوليتا قد استيقظت تماما، وإنها ستنفجر في صراخ استنجاد إذا مستها بأي جزء من جسدي الدنس.

أرجوك أيها القارئ مهما كان رأيك في شخص حساس مثلي..

ومهما كنت تأنف من مثلي.. أرجوك أن تتصورني وأنا أحاول أن أميز بين جرأتي وبين هلعي المرتجف في غابات قلقي ومجاهل فزعي.

كان وضعي حرجا وغير مريح. فلم يكن هناك موضع لرأسي. ومع إنها رحمت أعصابي فعادت تغط في نومها العميق.. فإنني ظللت لا أجرؤ على أن أمضي في رحلتي المسحورة إلى أماكنها الخلابة وقررت أن أحشيها غدا بتلك الأقراص الأولى التي كانت تحول أمها إلى دمية من لحم ودم.. ولكنها فاقدة الحس.. وقررت أن أنتظر مؤقتا دون الإتيان بحركة.. ذلك أن مقاربة المراهقات المسعورات فن تام له قواعده ويتطلب الصبر الجميل والحذر الشديد.

وأمضيت ليلتي مسهدا تتلقف آذاني كل صوت.. وليس هناك من مكان أكثر ضجيجا من فندق أمريكي في الليل والنهار.

وبدأت خيوط الصباح تتسلل من النافذة.. وأخيرا تقاربت منها أطرافي واستطعت أن اقترب منها حتى شعرت بوهج

كتفيها العاريتين يكاد يسلق عنقي.. وفجأة نهضت جالسة وأخذت تتمتم بكلام سريع محموم شيئًا عن نزهة في قارب.. وعن بربارة وعن تشارلي.. ثم ما لبثت أن هوت عائدة إلى نومها العميق.. وأثناء ذلك مدت يدها في حركة عفوية فأصابتني في وجهي وأمسكت بذراعها لحظة وأنا أنهل دفء زندها. ولكنها سرعان ما حررت يدها كذلك بحركة عفوية طبيعية تصدر من النائم اللاواعي دونما عنف أو قرف.. وعاد الوضع كما كان: همبرت يتوسد ذراعه على حافة السرير ولوليتا متكورة في نومها تدير ظهرها إليه. بينما هو يغلي شوقًا وحنينًا ويتحرق صبوه.

واضطرني ذلك إلى أن ألجأ إلى الحمام. فليس مثل الماء البارد من دواء في مثل هذه الظروف.. ولما عدت وجدتها قد نهضت من نومها وطلبت مني قدحا من الماء بصوت مطمئن.. ومدت يدها وتناولت الكأس الورقية ونهلت الماء البارد وأهدابها الطويلة المنسدلة تكاد تمس حافة الكأس.. ثم اقتربت مني بحركة صبيانية ومسحت شفتيها على كتفي مسحة فيها من السحر أكثر من أي مداعبة

مقصودة شهوانية.. ثم انكفأت إلى وسادتها وعادت إلى نومها في الحال.

لم أجرؤ على أن أقدم لها مع الماء قرصا منوما آخر.. إذ لم أكن قد تخليت تماما عن الأمل في أن القرص الأول سيفعل مفعوله ويسجنها بين ذراعي اله النوم، وهكذا بدأت أزحف نحوها مستعد لأية خيبة، إذ لم أعد أطيق صبرا مع إنني كنت أعلم بان من الأفضل أن أتريث. أخذت أزحف نحوها ببطء متوقفًا أو متراجعا، حينما خيل إلى بأنها على وشك أن تهتز.. وشعرت بنسمة من آفاق مسحورة تؤثر في لأفكاري.. آفاق جزيرتي الخيالية التي تسكنها حوريات مراهقات.. وأخذ جسمي المرهق يدخل بين الفترة والأخرى ملكوت النوم، بل أنني ضبطت نفسي أكثر من مرة وأنا أكاد أشخر.. وشعرت بضباب الحنان يلف في نفسي جبال الحنين وتلال التوقد، وأخذ يخيل إلى بين الفترة والأخرى أن الفريسة الساحرة ستلاقي في منتصف الطريق الصياد المسحور ثم يخيل لي أنها ستبتعد عني إلى الأبد إذ ستلامسني فجأة بوركيها.

وفي هذه الغمرة دقت الساعة معلنة الخامسة وعاد الفندق يضج بالأصوات، وبدأ والمصعد يرسل أزيزه باستمرار.. وخيل إلى أن أجيالاً ستمضي قبل أن تستيقظ لوليتا وتشاهدني نائما بجوارها، ولكن ما كادت تدق الساعة السادسة حتى كادت قد استيقظت تماما.. وما كان الوقت يصبح السادسة والربع حتى كنا تماما عاشقين.

إنني أوجه كلامي الآن إلى العضوات في هيئة المحلفين التي ستقررن مصيري وأقول لهؤلاء النسوة اللواتي لابد إنهن مصابات بالبرود الجنسي بأنني سأكشف عن أمر غريب:

في هذه الربع ساعة لم أكن أنا الذي أغويت لوليتا، إنما هي التي أغوتني.. انقلب الصياد إلى فريسة، وهذه هي القصة:

عندما سمعتها تتثاءب مستيقظة تظاهرت باستغراق بالنوم إذ لم أكن أعرف ما يجب أن أفعل وأخذت اتساءل إذا كانت ستذعر لرؤيتي ممدا بجانبها وفي ذات السرير؟.. وتساءلت إذا كانت ستجمع ثيابها وستلتجئ إلى الحمام وتقفل

على نفسها الباب، وإذا كانت ستطالبني بإعادتها إلى رامديل في الحال لتكون بجانب سرير أمها؟.

ولكن حبيبتي لوليتا كانت ماجنة ذات روح رياضية.. فقد شعرت بنظراتها مصوبة إلى، ولما ألقت تحية الصباح أدركت من رنة صوتها أن عينيها تضحكان.. وما لبثت أن تدحرجت نحوي فجاءت جدائلها فوق عيني وتظاهرت بالاستيقاظ.. وظللنا ممددين بهدوء ثم أخذت أداعب شعرها برهة.. ثم التقت شفاهنا في قبلة رقيقة حنونة.. ووجدت في طريقتها في التقبيل مسحة انفعاليا وأسلوبا رفيعا، ولكنه مضحك بالنسبة لسنها مما جعلني أتأكد من أن مراهقة سحاقية قد قاربتها وعلمتها منذ الصغر فنون التقبيل واعتصار الشفاه. فلس بوسع أي مراهق ذكر أن يعلمها ذلك.. وكأنها أدارت أن تختبرني لتعرف إذا كنت وعيت دروسها في التقبيل فإنها تباعدت عني قليلا وقد تضرجت وجنتاها والتمعت شفتاها برضابها.. بينما كنت أشعر بأن انحلالي التام بات وشيكًا.

وأطلقت لوليتا صيحة هازجة هي من مميزات الحوريات المسعورات وانحنت بفمها على أذني فظل ذهني

لبرهة طويلة عاجزا عن أن يفسر بالكلام همسها الدافئ وما لبثت أن ضحكت ولملمت الشعر الذي أنسدل على وجهها، ثم عادت مرة أخرى تهمس في أذني فضج رأسي بقصف غامض من همسها، فما لبثت أن دخلت في عالم حالم جديد إذا فهمت ما الذي كانت تقترحه بهمسها.

كانت تطلب مني أن (نلعب اللعبة) التي لعبتها مع تشارلي ابن مديرة المخيم.. الذكر الوحيد في مخيم البنات، فلما أجبتها بأنني لا أعرف كنه هذه (اللعبة) أجابتني وقد ارتسمت على وجهها معالم الاستنكار وعدم التصديق:

- أتعني انك لم (تلعب) أبدا تلك (اللعبة).

وفي تلك الأثناء أخذت أحوم بشفتي على كفتيها العاريتين فقالت لي وهي تنفلت عني بحدة كفاية من فضلك.

وكانت لها طريقة غريبة، احتفظت بها أشهرا طويلة، بأن تنظر إلى جميع الملامسات، باستثناء قبلة الفم كأمور (غير طبيعية) أو رومانتيكية.. وأردفت بإصرار وفضول وهي تنحني من جديد فوقي:

- هل تعني انك لم تفعلها عندما كنت صبيا؟

فلما أجبتها صادقًا بأنني لم أفعلها.. قالت لي:

- حسنًا.. من هنا نبدأ إذن. إليك كيف يعمل هذا

لن أثير ضجر قرائي المتمرسين برواية مفصلة عن ادعاءات لوليتا بأنها خبيرة في قضية الجنس إذ يكفي أن أذكر بأنني لم ألمح أثرا للتواضع في تلك المراهقة التي لم تكد تستكمل تكوينها، فلقد حرمها التواضع واستكمال التكوين عوامل شتى منها عامل الدراسة المختلطة.. وعامل الاتجاهات الخلفية لدى المراهقين وعامل الذئاب البالغين الذين يحومون حول مدارس البنات ومعسكراتهن.

وجدت لوليتا تعتبر العمل الجنسي بمثابة جزء من عالم المراهقين الصغار الخفي المستور.. العالم الذي يجهله البالغون.. فما يفعله البالغون من أجل حفظ النوع لم يكن يعينها إطلاقًا.. ولهذا فقد قاربتني كأن الأمر بديهي وكما لو كانت حياتي الجنسية شيئًا مجردا من التحسس ومنفصما عني.. ومع إنها كانت متلهفة إلى أن تثير إعجابي بسنن عالم المراهقين الأشداء، فإنها لم تكن متهيأة تماما لبعض الفوارق بين حياتها كمراهقة وحياتي كرجل بالغ متقدم في العمر.

ولقد كان الكبرياء وحده هو الذي منعها من أن تتوقف عما مضت فيه، ذلك إنني في غمرة دهشتي تظاهرت بالهبل

المطلق وتركتها تتصرف كما تشاء.. وبالطبع إلى المدى الذي أستطيع تحمله.

ولكن هذه قضايا تافهة في الواقع فلست بالذي يهمه ما يدعي باسم (الجنس)، ذلك أن باستطاعة كل إنسان أن يتصور عناصر الحيوانية تلك في ذلك اللقاء الجنسي بيني وبينها.. ثم إنني شعرت بميل أعظم من ميلي إلى ارواء عطشي. لقد استهواني ميل جارف إلى أن أتحرر في تلك اللحظة مرة أولى وأخيرة من سحر الحوريات المسعورات.. ذلك السحر الذي ينطوي على الأفكار المرعبة.

***

(٢٨)

إنني أحاول أن أصف هذه الأشياء ليس من أجل أن أعيشها من جديد في هذا الشقاء الذي أحياه في زنزانتي.. إنما أصفها من أجل أن أفرز الجانب السماوي على الجانب الجهنمي من عالم الولع بالمراهقات المسعورات.

أنه حب تتماوج فيه الحيوانية مع الجمال الروحي.. وأنه ولع تلتقي فيه الحيوانية مع قيم الجمال عند هامش الحياة أحب أن أحدد موضوعه، ولكنني أفشل في ذلك فشلاً ذريعا.

لقد تبنت الكنيسة منطوق القانون الروماني القائل بأنه يمكن للفتاة أن تتزوج في الثانية عشرة من عمرها. ولا يزال هذا القانون ساريا في بعض الولايات الأمريكية.. كما أن القانون في كل مكان يبيح للفتاة الزواج وهي في الخامسة عشرة. فالمشرعون سواء في النصف الغربي أم في النصف الشرقي من الكرة الأرضية يقولون بان لا ضير من أن يعمد عتل زنيم في الأربعين من عمره. باركه القسيس وربطه بعد الزواج مع فتاة في الخامسة عشرة. أجل لا ضير من أن يعمد هذا العتل إلى أن يلقي جانبا بقواعد الرقة في المعاملة ليقذف بنفسه إلى مفاتن عروسه الصغيرة ويقتحمها اقتحاما.

وقد وجدت في مكتبة السجن مجلة جاء فيها أن الطقس المنشط في مدن كسانت لويس وشيكاغو يجعل البنات بالغات ناضجات في عامهن الثاني عشر.

أن لوليتا قد ولدت على بعد يقل عن ٣٠٠ ميلا من طقس شيكاغو (المنشط) ولكنني لم أفعل شيئًا أكبر من إنني اتبعت معها سنة الطبيعة لقد استجبت للطبيعة. لأنني كلب مخاص من كلاب الطبيعة.

ولكن لماذا كل هذا الهول الذي الصق بي والذي لا أستطيع أن أزيله عني؟.

هل أنا الذي قطفت زهرة لوليتا؟

إنني أوجه كلامي إلى العضوات الحساسات الرقيقات في هيئة المحلفين فأقول: كلا.. لم أكن أنا الذي قطفت الزهرة.. بل لم أكن العاشق الأول الذي ضاجع لوليتا.

***

(٢٩)

حدثتني لوليتا عن الطريقة التي انتهكت بها ونحن نتناول في الفراش طعام الإفطار.. حدثتني وهي تزدرد الموز وتلتهم مربى الكمثرى.. حدثتني بكل شيء وبصراحة.

بدأت قصتها المثيرة بذكر بربارة رفيقتها التي كانت تنام معها في خيمة واحدة في مخيم الصيف السابق. وفي مخيم آخر للبنات. ووصفت رفيقتها بأنها بنت عظيمة ونصف مجنونة!! وقد علمتها كثيرا من الأشياء.

كانت بربارة الصبية الشقراء الفارعة تكبرها بعامين.. وكانت أقدر سباحة في المخيم وكان عندها قارب سريع

خاص بها، فكانت تدعو لوليتا إلى مشاركتها إياه، لأن لوليتا هي أقدر البنات على السباحة على ظهرها. فكانتا في كل صباح تحملان القارب إلى بحيرة صغيرة عبر الغابة يعاونهما في ذلك الذكر الوحيد تشارلي ابن المديرة البالغ من العمر ١٣ عاما.

في كل صباح كان المراهقون الثلاثة يختارون طريقًا جانبيا عبر الغابة البريئة وفي نقطة معينة كانت بربارة تختلي مع تشارلي تحت دغلة بينما تقف لهما لوليتا خفيرة.

وفي بادئ الأمر رفضت لوليتا أن (تجرب كنه ذلك الشيء) ولكن فضولها مشفوعا بنفوذ زميلتها تغلبا على برودها، وما لبثت أن أصبحت تتناوب وبربارة الخلوة مع تشارلي الذي كان مراهقًا وسيما لا يكل ولا يمل والذي كان يملك مجموعة ساحرة من الصور المثيرة، ويحتفظ بمجموعة عجيبة من (الأكياس الواقية) كان يصطادها من بحيرة مجاورة أوفر سعة وأحفل بالناس.

ومع أن لوليتا اعتبرت الأمر (نوعا من اللهو) كما اعتبرته (شيئًا مفيدا للبشرة) فإنه يسرني إنها كانت تكن احتقارا شديدا لمسلك تشارلي ولذهنيته.. فما أثار هياجها

وسعيرها ذلك الشيطان القذر.. بل اعتقد أنه أشاع فيها البرود رغم ما كانت تحسه من (متعة).

كانت الساعة قد بلغت العاشرة، عندما فرغت من قصتها، وعندما بدأ يضج في رأسي شعور موجع بالفظاعة يزيده وطأة ما يتميز به ضوء النهار من كشف النواحي الواقعية.

كانت لوليتا تقف عارية مرهقة الجسد أمام المرآة وقد أدارت لي قفاها الأبيض البض و راحتها على خاصرتها، ورجلاها متباعدان، بينما كانت تتأمل نفسها في دهش مبتذل وتعبث أناملها بخصلة طويلة كانت تتدلى على جبينها. وبدأنا نسمع أصوات الخدم في الدهليز والغرف المجاورة.. بل أن أحدهم جرب أن يفتح باب الغرفة فدفعت بلوليتا إلى الحمام لتأخذ دوشًا حارا كانت تحتاجه للغاية.

وارتدت لوليتا ثيابها بسرعة.. بينما وضعت في حقيبتها بعض القطع النقدية وقلت لها أن تنتظرني في صالون الفندق.. وأن تشتري لنفسها مجلة تتلهى بها إلى أن أوافيها.. ولم أنس أن أحذرها برفق من أن تتجنب الحديث مع الأغراب.

وتوجهت إلى مكتب الفندق لأتم المسرحية وهكذا سألت الكاتب إذا كانت زوجتي لم تتلفن فلما ردا بالنفي رجوته أن يبلغها إذا تلفنت إننا ذهبنا إلى مزرعة العمة كلارا.. و دفعت الحساب وجررت لوليتا من يدها وهي لا تزال تقرأ مجلتها.

وهنا يجب أن أذكر القارئ الصبور بان وجهتنا المقررة هي مدينة ليبيغفيل القريبة من المستشفى الوهمي الذي قلت للوليتا أن أمها دخلت إليه.

وبينما كنا ندخل السيارة رأيت معالم الألم ترتسم على وجه لوليتا.. ثم تزايدت هذه المعالم وضوحا عندما جلست لوليتا بجانبي.. ولا شك إنها فعلت ذلك لتشعرني بأنها تتألم جسديا ولغباوتي سألتها عما بها فأجابتني:

- لا شيء.. أيها الوحش..

فلما سألتها: ماذا تقولين؟

التزمت الصمت.. ولكن صمتها دفع عناكب الذعر تدب على ظهري بخالبها البادرة.. وتصورت الوضع الواقعي: هذه فتاة يتيمة وحيدة.. فتاة قاصرة قزمة اغتصبها وحش كاسر هذا الصباح.

ولكن إذا كان حلم حياتي قد تحقق بأروع مما كنت أرجو فإن ذلك لم يمنعه الآن من أن يتحول إلى كابوس مرعب.. أدركت في هذه اللحظة بأنني كنت طائشًا غبيا وخسيسا فاجرا.

وإذ أردت أن ألتزم الصراحة.. فإنني مع كل ذلك شعرت في غمرة هذه الدوامة المفزعة باهتزازات الرغبة تجوس في أعماقي.. أجل إلى هذا الحد كانت شهيتي مخيفة وهائلة إلى تلك الحورية المسعورة.

وهكذا اختلط في نفسي تأنيب الضمير ووخزات الشعور بالأثم.. مع خاطر عذبني إذ أوحى لي بأن مزاجها الحالي قد يمنعني من أن أستمتع بها مرة أخرى إذا وجدت على الطريق مكانًا جميلا منعزلاً أستطيع أن أخفي فيه سيارتي.

وبعبارة أخرى كان المسكين همبرت تعيسا وهو يقود سيارته مسرعا إلى ليبيغفيل. وهو يشغل كفره في استنباط وسيلة مناسبة يجرؤ بواسطتها على مقاربة جليسته.

على إنها هي التي قطعت حبل الصمت الطويل إذ قالت مدمدمة:

- أوف.. يا للعار.

فقلت لها متلهفًا مازحا: أجل يا عيب الشوم.. أليس كذلك.

وتطلعت إليها فوجدتها والحمد لله تبتسم.. ثم ما لبثت أن وجهت لي الحديث قائلة، ولكنها بابتسامة عذبة:

- أيها السافل الكريه. لقد كنت فتاة نقية نضرة كالأقحوان بالأمس، فانظر ما فعلت بي. يجب أن أذهب للشرطة وأبلغهم بأنك اغتصبتني أيها العجوز القذر.

- هل كانت تمزح؟

لقد كانت ثمة مسحة هستيرية تخالط كلماتها التي اتبعتها بالشكوى عن الآلام، قائلة إنها لا تطيق الجلوس إذا إنني مزقت شيئًا ما في باطنها وإذا سمعت ذلك أخذت حبات العرق تتساقط باردة وتنزلق إلى عنقي و كدت لارتياعي أن أدهس كلبا، بينما مضت رفيقتي الملتهبة غضبا تسبني سبا مقذعا، ولما توقفنا عند محطة البنزين دخلت الحمام وبقيت فترة طويلة ولما ظهرت قالت لي بتلك اللهجة الباردة التي آذتني كثيرا:

- اعطني بعض النقود، فإنني أريد أن أتلفن إلى أمي في المستشفى.. ما هو رقم التليفون؟

- هيا اصعدي إلى السيارة انك لا تستطيعين مخاطبة ذاك الرقم.

- لماذا؟

- أدخلي وأغلقي الباب.

دخلت السيارة وأغلقت الباب، فاندفعت بها إلى الطريق الجبلي، بينما قالت متسائلة:

- ولماذا لا أستطيع أن أتلفن إلى أمي إذا أردت أن أتلفن؟

فأجبتها: لأن أمك قد ماتت!!

***

(٣٠)

في مدينة ليبيغفيل المرحة اشتريت لها أربع كتب مصورة، وعلبة ملبس وعلبة أدوات المانيكير وساعة ومضرب للتنس وحذائين بكعب عال وراديو يد وعلبة لبان ومشمعا شفافًا ونظارات وبعض الجوارب والملابس الداخلية.

وفي الفندق أخذنا غرفتين منفصلتين، ولكنها جاءت في منتصف الليل منتحبة إلى غرفتي وتمت العملية بيننا بكل رقة ولطف.

وكما ترون فإنه لم يكن لديها قطعا من مكان آخر تلجأ إليه.

***

القسم الثاني

(١)

ولم يمض وقت طويل حتى أدركت ضآلة احتمالي أثارتنا أنا ولوليتا لأي شكوك فأصبحت أكثر جرأة، فرحت لا أستأجر سوى غرفة بسريرين أو غرفة بسرير وأريكة.. وكانت تلك الغرف تبدو لي كزنزانات في الجنة بستائرها الصفراء المسدلة التي تعكس في الصباح جو مشمس رائق.

وبالتدريج عرفنا كيف نمضي وقتًا طيبا في الأكواخ النائية المماثلة لما وصفه من أكواخ غرامية كل من فلوبير وشاتوبريان.. وعرفنا كيف نستخدم الخمائل والأدغال على طريق السفر.. أجل عرفنا مختلف أنواع الفنادق والحانات والاستراحات الصيفية.. وعرفنا من صاحبات تلك الاستراحات المرأة التي تحاول أن تظهر بمظهر أرستقراطي والمرأة الجانية.. والعاهرة المتقاعدة.. والعجوز المتصابية.

أن لوليتا تستطيع حينما تريد أن تكون أكثر المخلوقات إثارة للمتاعب والأعصاب بسلوكها الذي هو مزيج من

الطيش والرقة والتبذل والدلع والخفة والنزق. والواقع إنني لم أكن مهيأ النفس لمعالجة نزوات نزقها وضجرها.. وكنت أجدها من الناحية العقلية مراهقة صغيرة عادية بشكل مقرف.. فكانت موسيقى الجاز باند المحمومة والرقصات السريعة وأقداح البوظة المليئة بالبندق والفريز، والمجلات السينمائية الخ.. في رأس قائمة أحب الأشياء إلى قلبها والله يعلم من القطع النقدية حشوت بها العلب الموسيقية البراقة لتعزف ما تختاره لوليتا من موسيقى سوقية رعاعية محمومة، عند كل وجبة في المطعم.

في تلك الأيام لم يفكر أي منا في استنباط الرشوات المالية التي خلصنا إليها فيما بعد، لتسكين أعصابي ورفع معنوياتها.

لقد اعتمدت على ثلاث مناهج لإبقاء محظيتي السرية في حالة خضوع ومسالمة.

١- كانت قد ذكرت لي إنها قضت منذ سنوات صيفًا مقيتًا في مزرعة ريفية تحت إشراف أستاذة عانس، وكانت تجبرها على تعلم أشياء كثيرة في جو كريه منعزل، فقد كانت

المزرعة تبعد عشرين ميلاً عن أي مكان مأهول. وعندما حدثتني عن هذه الذكرى ارتسمت على وجهها معالم القرف والمقت التي شوهت ملامحها.

واستنادا إلى ذلك أخذت كل مرة تثير فيها أعصابي بنقبقها وتصرفاتها الصبيانية النزقة، أتوعدها بأني سآخذها إلى مكان منعزل لمدة شهر بل لمدة سنوات إذا لزم الأمر لتدرس تحت إشرافي اللاتينية والفرنسية هذا إذا لم تغير (مسلكها الحالي).

ولكونها ساذجة كانت تصيح مستنكرة وتمسك متوسلة بيدي المشغولة بمقبض السيارة. كما كانت تتصور بأنني فعلاً اتجه في غمرة غضبي منها إلى زجها في مثل ذلك المنفى المقيت المظلم.. ولكن تأثير هذا الوعيد أخذ يخف كلما مضينا قدما في أسفارنا نحو الغرب فكان لابد أن ألتمس وسائل أخرى لإقناعها وإخضاعها.

٢- من بين تلك الوسائل أذكر شعور من الخجل والعار تهديدا تأديبيا كنت أوجهه إليها.

لقد كنت منذ بداية علاقتنا الفاجرة من المهارة بحيث أدركت بأنني يجب أن أؤمن تعاونها التام لإبقاء علاقتنا سرا مخفيا، بحيث يصبح كتمان الأمر طبيعة ثانية فيها. وفي جميع الظروف مهما بلغ حقدها علي، ومهما كانت الملذات الأخرى التي قد تتطلبها نفسها.

فكنت أعودها على ذلك حتى في خلواتنا، حيث كنت أخاطبها مثلاً: (تعالي وقبلي أباك العجوز. وكفى هذا السخف).

ايه! يا لوليتا لقد كنت في السابق فارس أحلامك وكنت تحصين تأوهاتي وخلجاتي بين ذراعيك أما الآن فانا مجرد أباك العجوز.. مجرد أب خيالي يحمي ابنته الخيالية.

كنت أفعل ذلك كي أحمي عزيزتي لوليتا من كل الأهوال التي تتعرض إليها الفتيات الجانحات من ذئاب البشر في الأزقة المظلمة والمنعطفات الخالية.

أجل قررت أن أكون حارسك وحاميك ولعل المحكمة تجد مبررا قانونيا لهذه الحراسة.

ولكن لندع التعابير القانونية حول شرعية المساكنة والمعاشرة بين رجل في الخمسين وقاصرة لم تبلغ الخامسة

عشرة. إنني لست مجرما فاسقًا منحرف الميول يبيح لنفسه حرية مقاربة قاصرة مقاربة وضيعة أن الذي انتهك عذراها إجراميا هو تشارلي هولمز ابن المديرة.. أما أنا فلست إلى الطبيب المداوي.

كنت أقول للوليتا: انظري يا عزيزتي أنا أبوك الحبيب انظري.. ها هو كتاب نفيس عن الشابات الصغيرات اسمعي ماذا يقول:

(أن البنت الطبيعية –انتبهي البنت الطبيعية- هي عادة حريصة وتشتهيه. أما الأم الحكيمة فإنها خليقة بان تشجع الزمالة بين الأب وابنته للغاية على إرضاء والدها. وإنها لتجد فيه صورة للرجل الذي تحلم به لإدراكها بان البنت تستقي مثلها العليا على الحب والغرام مع الرجال من رابطتها مع والدها).

والآن ما هي الرابطة التي يقترحها ذلك الكتاب النفيس؟ إنني أنقل منه من جديد:

(أن العلاقات الجنسية بين الولد وابنته لدى سكان صقلية هي أمر مقبول باعتباره أمرا واقعا وأن المجمع هناك لا

ينظر باستنكار إلى البنت التي تشارك في مثل تلك العلاقات).

ولقد علقت على هذا المقطع إذ قرأت للوليتا بقولي: إنني من المعجبين بسكان صقلية يا لوليتا.. فهم رياضيون ممتازون وموسيقيون ممتازون وأناس ممتازوا التربية.

أخيرا لنتصور ماذا سيحدث إذا اتهمت أنت القاصرة بإفساد أخلاق رجل بالغ في فندق محترم؟ ماذا يحدث إذا شكوت للبوليس من إنني اختطفتك وانتهتك.

لنفترض أن رجال البوليس قد صدقوك:

أن العقوبة القصوى هي السجن عشر سنوات للشخص الذي تجاوز الواحدة والعشرين إذا سمحت له أنقصى قاصرة بأن يقاربها جنسيا.. أجل أن سماحها بذلك ينطوي على وقوع ضحيتها لطائلة القانون بدعوى أنه قام باغتصاب موصوف لقاصرة أو بمضاجعة غير مشروعة. وهكذا سأذهب إلى السجن بموجب ذلك.. حسنًا ما الذي سيحدث لك أيتها اليتيمة إذا زجني البوليس في السجن؟

انك في هذه الحالة ستكونين أتعس حظا.. إذ ستصبحين أمانة في يد امرأة عانس صارمة متزمتة تزيل الأصباغ عن

شفتيك، وتأخذ عطورك وثيابك الحديثة الحريرية وتعطيك تنورة طويلة وقميصا مقفل الياقة وتأخذك إلى الإصلاحية. إنني لست أعلم يا لوليتا إذا كنت قد سمعت بالقوانين المتعلقة بإصلاح القاصرات المنحرفات.

إذا بلغ الخبر البوليس سأقف وراء القضبان، بينما ستخيرك دائرة الشئون الاجتماعية أنت الطفلة المهملة السعيدة بين الذهاب إلى هذه الإصلاحية أو تلك، حيث تمضين النهار في إنشاد الأغاني الدينية والدراسة وأعمال التدبير المنزلي، وحيث تحصلين يوم الأحد فقط على القطائف مع وجبة الغذاء.. اجل في هذه الحالة سيجبرونك على الذهاب إلى واحدة من تلك الإصلاحيات، لأنك قاصرة جانحة تتطلب الإصلاح والإرشاد..

وبعبارة أوضح فإنك ستزجين إذا اكتشف البوليس أمر علاقتنا.

أقول أنك ستزجين مع ٣٠ أو أربعين قاصرة مثلك في حجرة قذرة معتمة تحت إشراف مربيات قاسيات متغطرسات متزمتات.

وهكذا ألا تظنين والحالة هذه أن من الأفضل للوليتا هيز أن تظل مع (أبيها) العجوز؟

استطعت بترددادي ذلك بالتفاصيل أن أرهب لوليتا التي لم تكن بالطفلة الذكية إلى المدى الذي توحي به ملامحها وقد استطاع هذا الإرهاب أن يلطف من طيشها.

وعلى كل حال فقد نجحت في أن أثبت في ذهنها وجاهة المحافظة على السرية والمشاركة في التكتم بالإضافة إلى الشعور بالمشاركة بالذنب والإثم، إلا إنني كنت أقل نجاحا في إبقاء مزاجها رائقًا طيلة الوقت.

فكنت كل صباح اضطر إلى إجهاد نفسي في ابتكار ما يمدها بالرجاء والأمل حتى يحين موعد لجوئنا إلى الفراش ولولا ذلك لانهار هيكل يومها وساء مزاجها.

***

(٢)

ينبغي أن تعلم أيها القارئ بان رحلاتنا كانت شاقة رغم جوانب المتعة.. وكان المبرر الوحيد لها هو أن أبقى رفيقتي في حالة مرضية بين القبلة والأخرى.

لقد مررنا بمختلف أنواع المطاعم الأمريكية وشاهدنا معظم التقاليع.

وفي غابة في ولاية اركنساس لسعت حشرة كتف لوليتا فاحمر مكان اللسعة وانتفخ فأزلت بأصابعي سمها ذي الشفافية اللذيذة قبل أن أحمل إليها شفتي لأقتات من دمها المعطر.

وزرنا أمكن الهنود الحمر وقمم الجبال وزرنا وزرنا.. وعرفنا في طريقنا الكثير من أنواع المسافرين المجانين: رجل العلم الذي يفتش عن الحشرات والمتحجرات. الجندي المتواضع الذي يقف هادئًا على قارعة الطريق وهو يشعر بجاذبية ثوبه الكاكي العسكري، والتلميذ الراغب في الانتقال. والقاتل الراغب في أن يبتعد ألف ميل على الأقل. وطالب الجامعة الفخور بجامعيته. والسيدة اليائسة التي نفذت بطارية سيارتها. ثم الشبان الذئاب بوجوههم الصبوحة وقمصانهم

المفتوحة ونظراتهم النهمة المتحدية الذين يقفون لإغواء مسافرة تقود وحيدة سيارتها وتحس بالحاجة إلى رفيق.. وكانت لوليتا تشير إلى هذا النوع من الشباب بسخرية قائلة: دعنا نأخذه.

على إنني طيلة الطريق كنت أتابع بعين حريصة لوليتا التي كانت تشع وربما بفضل علاقتنا الجنسية المستمرة، ببريق خاص مثير للخبالات الزرقاء.

أما لوليتا فكانت مدركة لتألقها وكنت غالبا أفاجئها وهي ترسل نظرة مسروقة باتجاه شاب رقيع أنيق وما أكاد أدير ظهري لاشتري قطعة حلوى للوليتا حتى أسمعها هي والشاب يغنيان إحدى الأغاني الغرامية الشائعة.

وأذكر إنني سمحت لها أول مرة بالذهاب إلى حلبة التزحلق إذ إنها قالت بقسوة أنه ليس هناك من متعة في مرافقتي لها إذ أن وقت الصباح مخصص للمراهقين فقط، فبقيت لوحدي في السيارة أمام موقف الحلبة حيث كان زهاء خمسين من الفتيان والفتيات يتزحلقون زوجا زوجا على أنغام الموسيقى، وأخذت أرقب لوليتا من بعد إلى أن اختفت فجأة، وما لبثت أن مرت من جديد تتزحلق بين ثلاثة من

الشبان الرعاع الذين سمعتهم قبل لحظات (يحللون) من خارج المكان الفتيات المتزحلقات، وسمعتهم يمصون شفاهم تشهيا لمرأى فتاة جاءت تتزحلق مرتدية الشورت الذي يكشف عن ساقيها.

منذ ذلك الحين لم أعد أرافقها إلى تلك الأمكنة.

لقد حلفت رحلتنا بالكثير مما يثير الغضب ففي بعض نقاط الحراسة كان يطل من نافذة السيارة شرطي ويبحلق بنظرات تجعل العرق يتساقط باردا على رقبتي ويسأل لوليتا:

- أهناك ما تشتكي منه يا حلوة؟

وكحل وسط لاختلاف مزاجنا اتفقنا على أن نذهب كلما كان الأمر ممكنًا إلى مسبح البنات، فقد كانت تعبد المياه المتلألئة البراقة وكانت سباحة ماهرة وكنت أحب تلك الأجساد العارية، أجساد المراهقات.. فكنت أجلس تحت المظلة غارقا في مقعدي وأرقبها وهي تسير برشاقة مع الفتيات وأقارن بينها وبين غيرها من المراهقات المسعورات، وأنا في منتهى السعادة لأنها ملك يميني.

وبالطبع كان لابد أن أدرك وأنا في غيرتي المحمومة مخاطر انفلات لم أشاهد أية حورية مسعورة تتفوق عليها في إثارة الرغبة.

بل لم تماثلها في ذلك غير فتيات قلائل وفي ظروف غير طبيعية فقد كانت إحداهن مخضمة بعطر مثير لا ينسجم مع سنها.

وبالطبع كان لابد أن أدرك وإنما في غيرتي المحمومة مخاطر انفلات لوليتا من رقابتي المباشرة فقد كان يكفي أن ابتعد عن لوليتا هنيهات أو خطوات في شأن ما حتى أراها عند عودتي وهي تلاطم الماء بطرف قدمها على حافة بركة السباحة بينما انبطح بقربها مراهق اسمر جذبه جمالها الأسمر بشكل لابد أن يعذب أحلامه المحمومة عدة أشهر.

إنني أذكر هذه الأحداث التافهة كيما أبرهن لقضاتي بأنني قد فعلت كل ما في طاقتي من أجل أن أوفر للوليتا وقتًا طيبا.

وكم كان يحلو لفؤادي أن أراها وهي ترى طفلة مثل سنها بعض حركات للقفز على الحبل التي كانت تتقنها فتثير دهشة رفيقتها وأقصد بها تلك الحورية الأسبانية المسعورة

التي كانت تحاول دائما أن تتعلم من لوليتا تلك الحركات البهلوانية كانت كذلك شهية كلوليتا وذات جسم بديع مثير وكنت أرقبهما إلى أن تنتهيا من ذلك لأقود لوليتا نحو غرفتنا وأنا أضع يدا (أبوية) تداعب شعرها ثم تنحدر برفق على ظهرها ولا أنسى أن ألقي بابتسامة إلى خادمة الفندق الزنجية وأنا أقود حبيبتي المترددة إلى عشنا الصغير من أجل وصلة سريعة قبل العشاء.

وبينما كنت عادة أتجنب ما أمكن الناس كانت لوليتا تبذل ما في وسعها كيما تجذب أكثر عدد من الشهود إلى مدارها، كالهرة الجميلة التي تجتذب الأيدي الحانية إذ تهز ذيلها الأنيق وهي ترسل مواءها، وفي هذه الحالات كثيرا ما كنت أتعرض إلى خطر الانكشاف فقد كانت السيدات اللواتي تجتذبهن وسامتي يسألن لوليتا الكثير من الأسئلة عن أبيها ويقترحن أحيانًا أن تذهب مع أبنائهن وبناتهن إلى السينما.

فلا أستطيع أن أرفض ذلك لخشيتي أن أثير شهيتهن ثم لا أستطيع ألا أن أخشى من أن ينزلق لسان لوليتا بشيء عن واقع حالنا.

كانت لوليتا معظم الأحيان تصحو متأخرة فكنت أنزل وحدي إلى بار الفندق لأتناول الفطور وأحمل لها قدحا من القهوة الساخنة إلى فراشها وكم كان يسرني أن أحمل إليها القدح وأوقظها ثم احجبه عنها إلى أن تؤدي واجبها المضاد وأذكر أحيانًا كيف كانت تفتح الصحيفة على زاوية (اختبر معلوماتك) لنلقي على ما فيها من أسئلة مثل:

هل تقل الجرائم الجنسية إذا أنصاعت الفتيات إلى نصائح قليلة مثل لا تلعبي قرب المراحيض العامة، لا تأخذي الحلوى من غريب، لا تقبلي أن يوصلك غريب بسيارته فإذا فعلت خذي رقم السيارة.

وكانت تمضي في هذا الاستجواب السخيف وخدها المتباعد يلتصق بخدي الذي يلاصق خدها باستمرار.

***

(٣)

لقد دخلت لوليتا على عالمي المجنح الأسود. دخلته بفضول طائش متهوروإستقصت جوانبه المعتمة بشيء من المتعة المكروهة.. ولكن بدا لي الآن إنها تتهيأ للخروج من هذا العالم بشيء قريب من التقزز والقرف.

إنها لم تهتز أبدا تحت لمساتي.. لم تكن لمساتي ترسل الاهتزازات في جسدها، فكان كل ما أحصل عليه منها هو هذا السؤال: ماذا تظن أنك فاعل؟.. ماذا دهاك؟

كانت مجنونتي تفضل الذهاب إلى الأفلام التافهة على الرحلات الساحرة إلى الملكوت السحري الذي كنت أعرضه عليها، أجل ليس هناك أقسى من أن يحب الإنسان طفلة مراهقة.

أرجو من القراء ألا يقطبوا وجوهم تجهما إذ لا أنوي أن!!! بأنني لم أنجح في أن أكون سعيدا مع لوليتا.. إنما يجب علي!!!!!!! يفهم أن الذي يمتلك الحورية المراهقة المسعورة وينغمس في!!!!! يندفع إلى ما وراء عالم اللذة والسعادة إذ ليس هناك من نعمة مداعبه وملاطفة الحوريات المراهقات، أن تلك النعمة هي شيء غير اعتيادي لا تقاس

بأية لذة.. إنما تنتمي إلى صنف آخر من عالم التلاذذ.. فعلى الرغم من فوارق السن وعلى الرغم من بذاءتها وخشونتها وعلى الرغم من كل سوقيتها وتظاهرها بالقرف وعلى الرغم من جميع الأخطار ومن أن العلاقة مع هذه المراهقة هي علاقة ليست بذات مستقبل.. وعلى الرغم من كل ذلك فإنني ذهبت معها عميقًا في جنتي المختارة.. إنها جنة ذات سماوات بلون ألسنة نيران الجحيم.. ولكنها جنة على كل حال.

وهنا يجب أن أشير إلى خيبة أملي بالبراري الأمريكية على الرغم من جمالها الوحشي الفتان، ذلك أن العشاق من هواة المغامرات الغرامية في الهواء الطلق لن يجدوا فيها من السهل الانغماس بأمان واطمئنان بمزاولة أقدم وأعرق الجرائم الأخلاقية في التاريخ الإنساني، فغالبا ما تلهب الأعشاب السامة سيقان الحبيبات، وكثيرا ما تلسع حشرات مجهولة كل مكان مكشوف من الجسم.

ولعلي أبالغ بعض الشيء، ولكن هذا بعض ما جرى لي من لوليتا في أصل يوم صائف، فقد وجدنا بقعة جبلية خلناها أمينة إذ ترتفع مائة قدم عن المكان الذي أوقفنا فيه سيارتنا،

وقد صعدنا إليها ولم نصلها إلا وقد تقطعت أنفاسنا، وفي ظل شجرة، بدت كأنها تحجبنا عن الشمس وأعين الناس، فرشت للوليتا فراشًا من الأزهار والأوراق الجافة الناعمة، فتعرت كتمثال فينوس وأخذت تجوب المكان.. المكان الذي يبدو أمينا مضمونًا.. ولكن مع ذلك كاد أمرنا ينكشف وبشكل واضح جدا لتشوقي إلى مزاولة الغرام في الهواء الطلق.

والحكاية أن العملية كانت قد انتهت تماما وكانت لوليتا ترتمي بين ذراعي منفجرة في عاصفة من البكاء والنحيب أثر إحدى نوبات المزاح الحزين العكر التي بدأت تنتابها في خلال تلك السنة الرائعة التي لم يكن يعكرها سوى نوبات البكاء.

فقد كانت قد قطعت وعدا سخيفًا حملتني على أن أقطعه في لحظة من الشبق الأعمى الجارف، فأخذت تنتحب وتشهق وتقرص يدي المنسابة على جسدها بينما أخذت أضحك بسعادة معتبرا هذه الموجة من مزاح لوليتا مجرد شامة سوداء في جبين سعادتي الوضاح. وبينما كنا مفترشين الثرى جنبا إلى جنب فوجئت بإحدى تلك المفاجآت التي انتهت بزحزحة قلبي التعيس من مكانه. فقد لاقت أبصاري عيونًا

ثابتة النظرات تطل من وجهي طفلتين جميلتين عرفت أنهما توأمان من تشابه شعرهما الحالك المنسدل ومن خدودهما الشاحبة. كانتا تحملان باقات من الورود البرية وتحدقان بنان فسارعت إلى إسدال الغطاء علينا بينما لمحت بين الأدغال شيئًا يتحرك تبين بعد برهة إنها أم الطفلتين التي كانت تقطف الورود وتحملها لهما، ورأيت كيف ألقت علينا نظرة مسروقة من وراء ظهر طفلتيها الجميلتين.

***

وهزة أخرى شرخت فؤادي أذكرها تتصل بضاحية كنا نجتازها ليلا.. فقد كانت قبيل أن نصل إليها قد ذكرت للوليات أن المدرسة النهارية التي سأدخلها إليها في "بيردسلي" هي مدرسة ثانوية، ولكن التعليم فيها غير مختلط كما أنه ليس فيها تلك الوسائل والأنظمة الحديثة السخيفة.. وأسمعت لوليتا ذلك عرضتني لجملة خشنة من الحملات التي درجت على أن تعرضني إليها مشفوعة بالتشهير والشتم والإهانة والكلام المبطن وبما ينم عن روح سوقية شرهة ويأس ساذج.

راحت لوليتا تندفع في السباب والشتيمة.. صائحة في وجهي:

- سأكون بلهاء إذا أخذت رأيت على محمل الجد.. أيها القذر.. انك لا تستطيع أن تتحكم في.. أنني أكرهك.. الخ. ولكني مضيت أقود السيارة بسرعة عبر شوارع المدينة النائمة عندما أوقفنا شرطيان ساطا مصباحيهما علي داخل السيارة.. وتطلع الشرطيان إليها بفضول ودي فتغير وجهها المتجهم واكتسى بابتسامة ساحرة، وردت عليهما بنظرات حلوة حانية وبشكل لم تستجب بمثله قبلا إلى مغازلاتي وضياع رجولتي.. ولا عجب في ذلك فقد كانت لوليتا من القانون أكثر خوفًا مني وتجاه هذه النظرات الرقيقة عفا الشرطيان عن تجاوزي الحد الأقصى للسرعة وتركاني استأنف السير.. وتطلعت إلى فوجدتها قد أسدلت أهدابها وهي تتظاهر بأنها منهكة القوى متعبة الأطراف.

أن الكتب القانونية عن الزواج والطلاق وتبني الأطفال وانتهاك الأعراض التي راجعتها في عدد من المكتبات

العامة، لم تفدني بشيء أكثر من أن الدولة هي المرجع الأعلى في حضانة القصر والوصاية عليهم.

وخلصت من أبحاثي القانونية إلى معرفة أن الوصي يعين عندما يعرب عن رغبته الجادة الرزينة في أن يأخذ القاصر في عهدته في منزله ولكن قد يمر أشهر قبل أن تعين المحكمة موعدا لجلسة النظر في طلبه.. وبانتظار ذلك تترك الطفلة –فنيا- لشأنها تدبر أمرها بأمرها!"

وإذا تعقد الجلسة فإن القاضي يلقي بعض الأسئلة فيرد عليه محامي الوصي بأجوبة مطمئنة. وبعد ابتسامات مشفوعة بهزات من الرأس تعلن المحكمة موافقتها على الطلب.

كان هذا الإجراء سهلاً ولكنني مع ذلك ما تجرأت على أن أقدم عليه. كنت كالفأر المذعور.. هذا بالإضافة إلى أن الإجراءات تطول حينما يكون للقاصر وارث، وهكذا وجدت أن من الأفضل أن أمتنع عن تقديم أي طلب متسائلاً طيلة الوقت عما إذا كنت لن أصادف قريبا فضوليا يتدخل قضائيا لأجل لوليتا أو جمعية إنسانية تقحم نفسها في الأمر.

لقد قررت أن أدخل لوليتا مدرسة البنات الثانوية في "بيردسلى" حيث سأعكف على مراجعة بعض المراجع القانونية حول الوصايا على القصر، وقررت كذلك أن أي شيء من العلم في تلك المدرسة سيكون أفضل للوليتا من البطالة المضرة التي تحيا فيها. وكان بوسعي أن أقنعها بكثير من الأشياء ولكنني كنت دائما أخفق مهما حاججت وغضبت وصحت في أن أحملها على قراءة أي كتاب خلاف كتب الجرائم المصورة والمجلات النسائية والسينمائية.. فقد كانت ترفض قراءة أي رواية تثقيفية بحجة أنها لا تريد أن تفسد بهجة عطلتها بقراءات ثقيلة الظل.

والواقع إنني ارتكبت خطيئة فاحشة إذ قررت أن نتجه شرقًا وأن أدخلها المدرسة في بريدسلى بدلاً من أن نمضي متجولين في منطقة الحدود لنعبرها إلى المكسيك حيث كان باستطاعتنا أن نعتزل الحياة في جو من النعيم، وفي بقعة جميلة معزولة إلى أن أستطيع الزواج بكل اطمئنان من معذبتي الصغيرة، ذلك لأنه يجب أن أعترف بأنني بالاعتماد على غددي وافرازاتي كنت خليقًا بأن أتنقل في يوم واحد من مرحلة جنون إلى أخرى.. جنون يتأتى من تفكيري بان علي

في حوالي عام ١٩٥٠ أن أتخاص من مراهقة صعبة المراس تبخر منها طابعها كحورية.. وجنون يتأتى من التفكير بأن بمساعدة من اصطباري وحظي الطيب قد أستطيع أن أملأ أحشاءها بجنين سيتحول إلى حورية مسعورة فتكون لوليتا الثانية في الثامنة أو التاسعة من عمرها عندما تصل إلى عام ١٩٦٠ حيث سأظل قادرا على أن أمثل معها دور الجد الذي يحتضنها بوصايته الجد الذي هو إنسان لا يزال أزرق الناب أخضر القلب.

أجل كانت هذه الفكرة تثير جنوني.. وكنت أرى الاحتمال واضحا في أحلام يقظتي وبمنظار لا عقلاني يسلطه ذهني على المستقبل.

على إنني أشك في أنني لم أكن خلال رحلتنا المحمومة تلك أو للوليتا يدعو إلى السخرية.

أن اختياري لمدينة (بيردسلى) لم يكن يستهدف فقط حقيقة أن المدينة ذات مدرسة خاصة بالإناث ولكن كان يستهدف كذلك حقيقة إنها ذات كلية للبنات فيها أستاذ للغة الفرنسية كنت أعرفه وكنت أرجو من وراء معرفتي له أن أوفر لنفسي طابعا شخصيا يسترني عن طريق اقناعه

باستخدام مؤلفي عن اللغة الفرنسية ويدعونني أحيانًا لإلقاء محاضرات في الكلية.

ولم أكن بالفعل أحب أن أفعل ذلك فلقد عرف القراء أني أكره الفتيات اللواتي يتجاوزن سن المراهقة إذ يبدين في نظري أنصاف العجول.. وأرى فيهن توابيت حية وئدت فيها مراهقات. مراهقاتي اللواتي أهيم غراما بهن. إلا إنني كنت أتحرق إلى طابع يسترني ويضفي علي الحماية من الفضول.

وأخيرا كانت الناحية المالية تدفعني إلى ذلك فقد أخذ رصيدي ينضب.

***

(٤)

ووصلنا إلى مدينة بيردسلي..

والواقع أنه لم يكن يهمني أين نسكن مادمت أستطيع أن أحبس حبيبتي في مكان ما ولكنني أعتقد بأنني في خلال مراسلتي مع صديقي الذي قام باستئجار شقة لنا قد تصور أن البيت الذي سيستأجره لنا سيكون ذا سقف قرميدي أحمر ومظهر براق.. أما البيت الذي استأجره فعلا فقد كان يحمل

نفس طابع بيت شارلوت هيز القديم.. الطابع المضجر القاتم بل حتى أثاث الغرف كان مرتبا بطريقة تشابه أثاث بيت أم لوليتا وأن كان هذا الأثاث أحدث وأرق.

وخيل إلى أن غرفة مكتبي في البيت هي صالون طويل يمتاز برفوف طويلة من الكتب الكيمائية. فقد كان صاحب المسكن أستاذًا للفيزياء والكيمياء في الكلية وقد غاب في أجازة طويلة فأجرني جاستون بيته.

لقد رجوت أن توفر مدرسة الإناث في بريدسلى بعض الثقافة لعقول الطالبات مثلما توفر لهن مدرسة نموا طيبا لأجسامهن بفضل ملاعبها الفسيحة وطعامها الغني بالفيتامينات.

أما جاستون الذي كان مصيبا في الحكم على المناقب الأمريكية فقد حذرني من أن الكلية قد تختلف عن كلية من الكليات التي تعلم طالباتها:

اذكر أن مديرة الكلية السيدة برات قد عبرت للوهلة الأولى عن حبها لعيني ابنتي لوليتا الزرقاوين.. كما أعربت عن إعجابها بذلك (الفرنسي العبقري) جاستون.. وما لبثت

أن سلمت لوليتا إلى المعلمة كورموران ورفعت حاجبيها كما لو كانت تحصر فكرها ومضت تحاضرني قائلة:

(إننا غير مهتمين كثيرا بأن نجعل طالباتنا من مدمنات القراءة.. إنما نهتم كثيرا بتهيئة الفتاة لحياة الجماعة وأن نهيئها لهذه الأساسيات:

المسرح التمثيلي والمراقصة والمناقشة والمواعدة.

إننا نواجه في برامجنا حقائق الحياة الواقعية فمثلاً ستدخل ابنتك الظريفة قريبا في مرحلة من عمرها تعني فيها المواعد والمواعدة والملابس التي ترتديها في مواعيدها.. الخ. نفس ما تعنيه الصلة التجارية والنجاح التجاري لرجل أعمال مثلك ونفس ما تعنيه لي شخصيا.

أن ابنتك لوليتا تعيش في نظام من الحياة الاجتماعية يقوم شئنا أم لم نشأ على محلات بيع الساندويتش وعلى مقاهي البوظة ودور السينما والمراقص ونزهات البلاج والحفلات الراقصة!

وبالطبع فإننا في كلية بيردسلى لا نقر بعض وجوه هذا النشاط ونعمل على توجيه أوجه النشاط الأخرى وجهات بناء إلا إننا لا نحاول أن ندير ظهورنا لقرص الشمس ولا نحاول

التعامي عن الحقائق.. وبالاختصار فإننا نطبق بعض الفنون التعليمية فإننا نهتم فوق كل شيء بالصلات الاجتماعية.

ولنعرض يا سيد همبرت الموضوع كما يلي:

أنه من الهام أن تعرف البنت الثقافة الرفيعة ولكنه يظل من الأهمية بالنسبة لربة المنزل أن تعرف أحسن بقعة عملية لوضع الثلاجة في مطبخها.

انك تقول أن كل ما تتوقع من البنت أن تكسبه من المدرسة ثقافة صحيحة ولكن ماذا تعني بكلمة ثقافة.

لقد كانت الثقافة في الأيام الخالية نعني طاقة خارقة على الاستظهار فكنت تستطيع أن تعلم البنت أن تستظهر دائرة معارف ضخمة وتستطيع أن تحشو مداركها بحيث تعرف أكثر مما تستطيع المدرسة تقديمه لها من تعليم.

كانت هذه هي خلاصة محاضرة المديرة عن برنامج مدرستها. وهو برنامج أفزعني في الواقع فلن اطمئن إلى أمر لوليتا إلا بعد حديث مع سيدتين لهما صلة بالمدرسة أكدتا لي بان البنات يقرأن الكثير من الكتب السليمة المفيدة وأن قصة (وصل البنات بالحياة وصلاً عمليا) ليست سوى دعاية

صاخبة فارغة ترمي إلى تبرير زيادة الأقساط المدرسية وإلى إعطاء هذه المدرسة القديمة الطراز طابعا حيا حديثًا.

***

(٥)

لقد كانت علاقاتي مع جيراني الجدد علاقات مختصرة.

فكان جاري من ناحية الغرب يوجه لي الكلام أحيانًا حول مواضيع الساعة الحاضرة وهو يغسل سيارته أنه يشذب الخمائل في حديقته فلم أكن أرد عليه سوى بهمهمة مهذبة لا يتبين منها إذا كنت أوافقه الرأي أو أخالفه فيه، وكانت تسكن في البيت المقابل أستاذتان للغة الإنجليزية هما المس ليستر الممتلئة القامة القصيرة الشعر، والمس فابيان ذات الأنوثة الدتاوية، ولم تكن العانستان تتحدثان معي إلا حديثا مقتضبا إذ تمران بحديقتي وكان الحديث دائما يتناول (بارك الله فيهما) حلاوة ابنتي لوليتا ولطف جاستون الساحر.

أما جارتي من الناحية الشرقية فكانت أشد الجيران خطرا، إنها امرأة ذات أنف معكوف كأنف الصقر وطبيعة فضولية، وإنني لا أذكر كيف رأيتها تكنس لوليتا بأنظارها وأنا وراء نافذة غرفة الاستقبال انتظر محموما عودة حبيبتي

من مدرستها ورأيت كيف حاولت العانس البشعة أن تخفي فضولها الجارح وراء ستار كاذب من الحنان والطيبة إذ وقفت متكئة على مظلتها.

بينما كانت لوليتا قادمة مفتوحة الياقة تحديا للطقس تحمل كومة من الكتب أسندتها إلى بطنها بينما كان الهواء القارس قد جعل الاحمرار القرمزي ينتشر في الجزء المكشوف من ساقيها.

أعترضتها الجارة الشرقية بابتسامة مخاتلة أشرقت على وجهها ذي الأنف المعكوف وسألتها بصوت حاولت أن تجعله رقيقًا:

- وأين أمك يا عزيزتي؟ وماذا يعمل والدك؟ وأين كنتما قبلا؟

وإلى غير ذلك من الأسئلة:

وذات مرة اعترضتني هذه الجارة الكريهة بابتسامة مرحبة ولكنني تهربت منها وبعد أيام جاءتني رسالة منها تقطر حلاوة وسما في آن واحد فقد اقترحت فيها أن تزورها لوليتا يوم الأحد لتتفقد (الكتب الجميلة التي أورثتها لها أمها

بدلا من أن تفتح الراديو على مداه طيلة النهار و حتى ساعة متأخرة من الليل).

ثم كان علي أن أكون شديد الحذر من المسز هوليفان الغسالة والطباخة التي ورثتها مع المكنسة الكهربائية من الساكن السابق.. ولما كانت لوليتا تتناول طعامها في المدرسة، فلم يكن هناك ما يخشى منه من فضول الطباخة إذ كنت أعد لها العشاء الذي تطبخه المسز هوليفان قبل أن تنصرف.

لقد كان جاستون يمتدحني لدى الناس.. وكان بذلك داعيتي الطيب لحسن الحظ، وكنت أصبحت خبيرا في ترتيب الفراش فلم أترك لها فرصة للشك في أن هذا الفراش هو مسرح لنشاط غير أبوي.

غالبا ما كنت أشعر بأنني أعيش في بيت مضيء من زجاج وأن زوجها فضوليا سيطل عبر النافذة أهملت تغطيتها بالستائر، كيما يحظى بنظرة حرة يكشف فيها شيئًا مثيرا من الأشياء التي أحاول تخبئتها.

***

(٦)

يجب أن أخص جاستون ذودان بكلمة.

أن السبب الرئيسي في تمتعي برفقته أو احتمال صحبته بارتياح. هو ذلك الشعور بالاطمئنان المطلق إلى أن شخصه يلقي ظلا يحجب سري.

لقد كان غاستون يمتدحني لدى الناس.. وكان بذلك داعيتي الطيب ولو أنه اكتشف خفايا ميولي ووضع لوليتا في كيان حياتي. لما كان قد أهتم بالأمر إلا من حيث إيضاحه لبساطة موقفي حياله. هذا الموقف المنزه عن التأدب والرسميات المصطنعة.. ذلك أنه كان يعلم إنني أعرف عنه أكثر مما يعلم سكان بيردسلى.. وإنني أفهمه أكثر من فهمهم إياه.

كان رجلاً عازبا مثقفًا غريب الأطوار ساحر السجايا.. وكان دائما يرتدي الثياب السوداء القاتمة ونادرا ما كان يستحم.. وكان الجزء الأدنى من جسمه يتميز بتضخم لا يتناسب مع نحافة الجزء العلوي.. ومع ذلك فقد كان الجميع على الرغم من غرابة أطواره يعتبرونه شخصية ساحرة خليقة بأن تحب.

إلا إنني لأسباب بديهية كنت أفضل أن ألاعبه الشطرنج في بيتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع.

وكنت في بعض الأحيان اسمع ونحن مستغرقان في اللعب وقع قدمي لوليتا العاريتين على البلاط وهي تقوم بتمارينها الراقصة في غرفة الجلوس ولكن جاستون لم يكن ليحظ شيئًا فقد كان اللعب يستغرق كل حواسه، فلا يحس بوقع خطوات لوليتا وهي تلف وتدور وترفع ساقًا وتخفض أخرى وتنثني وتتمايل بعريها وسط الأثاث البارد غير المتجاوب.

وفي بعض الأحيان كانت لوليتا تطل علينا ونحن منحنيان على لوحة الشطرنج وتتأمل جاستون وهو مستغرق النظرات في قطع الشطرنج. بينما يمد لها يدا باردة لمصافحتها دون انتباه إليها وأذكر أنه ذات مرة قال لي بين نقلتين من نقلات الشطرنج.

- وكيف حال بناتك؟

ولابد أنه في استغراقه قد ظن لوليتا أكثر من واحدة، ذلك أنها كانت تطل كل مرة بزي جديد.. مرة مرتدية

السراويل الرجالية. ومرة ترتدي الشورت ومرة المايوه ومرة ثوب الكوكتيل.

إنني أكره أن أطيل الكلام في هذا المخلوق التعيس الذي سافر إلى أوروبا بعد عام ولم يعد منها فقد تورط في مشكلة قذرة.

(٧)

لقد كنت ضعيفًا مع لوليتا ولم أكن حكيما فاستعبدتني هذه التلميذة المراهقة.. فقد ازدادت صبوتي إليها وازداد عذابي بتضاءل وانكماش العنصر الإنساني في علاقتنا واستثمرت لوليتا صبوتي وعذابي أسوأ استثمار.

بل كانت تتكشف عن مساومة قاسية، حينما ترى ضعفي وتهالكي على أن أنال منها ما لا أستطيع أن أصبر بدونه في جو حياتنا المتوتر المحاط بالمخاوف فكانت تتعنت في شروطها من أجل أن تمنحني ما لم أكن أستطيع أن أناله منها قسرا.

ولقد أستطاعت في إحدى المرات إذ أدركت قوة سحر فمها الرطب أن ترفع ثمن المعانقة إلى ثلاثة بل إلى أربعة دولارات.

لا تضحك أيها القارئ العزيز وأنت تتصورني في حالة محمومة من الشبق وأنا أخرج من جيبي قطع النقود المعدنية وأكومها في يد لوليتا لأشتري رضاها.

وكنت دائما أحاول بعد أن أقضي حاجتي أن أسترجع بالقوة ما تمسكه في راحتها من قطع النقود كما كنت أتفش بين كتبها ودفاترها وفي مخابئها المألوفة عما تكون قد خبأته من قطع نقدية فأستعيدها، وأذكر ذات يوم إنني اكتشفت ٢٤ دولارا مخبأة في ثقب تحجبه إحدى صور الصالون، ولما اكتشفت لوليتا الأمر في اليوم التالي اتهمت أمامي الطباخة الأمينة المسز هوليفان بأنها لصة قذرة.

على أن لوليتا سرعان ما ارتفعت إلى مستوى غرائز دهائها الفطري فوجدت مخبئًا أفضل لم أستطع أن أكتشفه، ولكني كنت قد خفضت أسعار عطاياها الدافئة تخفيضا جذريا بواسطة تصعبي معها تصعبا شديدا قبل إعطائها إذنًا كتابيا بالاشتراك في برنامج المدرسة المسرحي ولم أكن إذ خفضت مصروفها أخاف أن تفلسني بما تستجره من مال، إنما كنت أخشى أن تقتصد وتجمع مبلغًا من المال يكفيها للهرب مني.

بل أني لا أعتقد بأن تلك الطفلة ذات النظرات الثاقبة قد تصورت بأنها تستطيع إذا اقتصدت خمسين دولارا أن تصل بواسطتها إلى هوليود أو برودواي، ولتحاول تحقيق حلم يجول في صدر كل مراهقة حلم الظهور في السينما أو التمثيل على المسرح، فإن لم يكن فإن المجال مفتوح لتعمل في بار أو ملهى، حيث الحياة تبدو سهلة ممتعة مليئة بالرجال الرسميين والسيارات الفارهة، والنزهات القمرية، والحياة الصافية.

***

(٨)

حضرات القضاة:

لقد بذلت خير جهدي لمعالجة مشكلة الأطفال المراهقين ولمعالجة مشكلة علاقات لوليتا مع أولئك الشباب، بل حتى إنني أخذت أقرأ العمود المخصص للمراهقين في جريدة (بيردسلى ستار) لاستهدي منها كيف يجب أن أتصرف وأذكر مما قرأت المقال التالي:

(كلمة إلى الآباء: لا ترهبوا صدق ابنتكم وتحملوه على تجنبها قد يكون من العسير عليكم أن تدركوا أن الأولاد

يجدونها الآن جذابة. فبينما لا تزال بالنسبة إليكم مجرد طفلة صغيرة يراها الأولاد ساحرة مرحة وممتعة ولذا فهم يهوونها ويغزونها.

أيها الأب انك الآن تحتل وظيفة كبيرة في شركة ما ولكن تذكر انك لم تكن بالأمس سوى الطالب الجامعي جيم يتطوع لحمل كتب زميلته جين.

أتذكر ذلك ثم ألا تريد أن تكون ابنتك (وقد جاء دورها الآن) سعيدة بما تلقاه من إعجاب رفاقها الشباب الذين تودهم؟.

ولماذا لا تسليها بالأحاديث؟ ولماذا لا تخرجها من تحفظها معك وتجعلها تشعر بارتياح معك.

إذا خالفت ابنتك القواعد وشذت عن الآداب فلا تنفجر فيها أمام شريكها في الجريمة بل دعها تنال رذاذ غضبك في خلوه وعلى انفراد، وعليك أن تكف عن جعل أصحابها الشبان يشعرون أنها ابنة غول عجوز.

هذا بعض ما كنت اقرأه من نصائح، ولكن الغول العجوز الذي هو أنا لم يكن قد وضع قائمة بما هو ممنوع قطعا على لوليتا وبما مسموح لها مع شيء من التردد.

أما رأس قائمة الممنوعات فكان: المواعيد مع الشبان، سواء كانت لوحدها أو مع رفيقة لها وسواء كان الموعد مع شاب واحد أو شابين أو ثلاثة في آن واحد، فمثل هذه المواعيد تبدأ بنزهة خلوية أو حفلة بيتيه كخطوبة أولى وتنتهي إلى تهتك جماعي ولكنني اسمح لها بالذهاب مع رفيقاتها البنات إلى دكان الحلوى، حيث يخضن حديثًا مع من يكون فيه من شبان صغار، بينما كنت أراقبهن في سيارتي من مسافة مأمونة.

لقد أغضبت هذه القواعد لوليتا وأثارت ثائرتها علي ودعتني بالمحال القذر وأسوأ من ذلك من النعوت وقد كنت خليقًا بان أفقد سيطرتي على أعصابي حيال شتائمها لولا إنني اكتشفت بأنها لم تكن غاضبة فعلاً لحرمان أباها من أشياء معينة، إنما لحرماني إياها من حق عام.

وهكذا كنت متمسكًا بالبرنامج التقليدي لما هو مألوف من التصرفات وما هو مسموح به، حسب العرف القديم، فبهذا البرنامج تكون البنت أكثر تحفظًا من أي مخلوق.

أرجوكم ألا تخطئوا فهمي، فأنا لا أستطيع أن أجزم بأنها لم تستطع في خلال الشتاء، أن تتصل اتصالات غير سليمة

وغير نظيفة مع شبان لا أعرفهم، فلابد مهما كانت رقابتي من وجود ثغرات تنفذ منها إلى إساءة استخدام وقتها، ولكنني أستطيع أن أقسم بأنها لم تفعل شيئًا يدعو إلى ذعر جدي.

ومع إنني لم أستطع الاعتياد على حالة القلق الدائمة في حياتي العظيمة الأثم، فإنني كنت أشعر بأنني أبذل خير جهدي لمحاكاة وضع الأب.. وتمثيل دوره، وكنت كل يوم أثر موجة من القنوت تعجب رحيل لوليتا إلى المدرسة بعد (وصلة إلى الصباحية) كنت استلقي كل يوم على فراشها البارد واستعرض أحداث اليوم الماضي وأتفقد صورتي ودوري فيها كما كان وليس كنت أبغي، لقد كنت أحيانًا أتصرف معها تصرف الأب الطبيعي فأخذها لنزهات بريئة للسينما أحيانًا والمطاعم والمكتبات.

(٩)

تعرفت على صديقاتها اللواتي طالما اشتقت إلى التعرف عليهن وجدتهن مخيبات للظن.. رأيت (أويال) فتاة خجولة عديمة الشكل ترتدي نظارة طبية، ورأيت وعرفت ليندا هول بطلة التنس في الكلية وشككت في كونها جنية مسعورة على حق وحقيق، ولكنها لأسباب مجهولة لم تأت إلى بيتنا. وكانت بقية رفيقات لوليتا من العاديات باستثناء إيفا روزون التي كان بوسعها أن ترتقي إلى مصاف الجنيات الجميلات.

فقد كانت لاجئة من فرنسا، وكانت من جهة أخرى مثلاً صالحا للفتاة ذات الجمال غير الصارخ، ولكنها كانت تتكشف أمام العين الخبيرة عن إنها تمتلك العناصر الأساسية لسحر المراهقات، وذلك بوجهها الصبياني وعينيها الناعستين ووجنتيها البارزتين. وكان لشعرها النحاسي نعومة شعر لوليتا.

ولعل القارئ يعرف أية أهمية أعلقها على أن تحيط بلوليتا جنيات يمكن اعتبارهن بمثابة احتياطي لها.. أو بمثابة جوائز ترضية!!

ولقد حاولت لفترة ما أن أشغل مشاعري برفيقتها مونا داهل، التي كانت تكثر التردد على بيتنا، وخاصة في فصل الربيع. عندما اشتد حماسها للتمثيل، ولطالما تساءلت عن الأسرار التي باحت بها لوليتا الغشاشة الماكرة إلى مونا مقابل إباحتها لي بثمن باهظ تفصيلات لا تصدق عن علاقة غرامية كانت لمونا مع بحار في ركن منعزل من الشاطئ.

فلقد كان من خصال لوليتا أن تأخذ كاتمة أسرار لها مثل مونا داهل الأنيقة المتحفظة المظهر، المتمرسة في الحياة كأنثى.

كانت ذات صوت مبحوح مثير وشعر أسود مجدول وعينين بلون العنبر الداكن وشفتين غليظتين.. وكانت يداها ترتجفان. ولقد استطعت أن أحصل منها على معلومات عن بعض ما خفي عني من حياة لوليتا في المدرسة.

ففي ذات يوم جاءت لتتمرن مع لوليتا على جزء من مسرحية (ترويض النمرة) لشكسبير.. وكانت لوليتا غائبة فجلست أجاذبها الحديث. وبشكل غير مباشر سألتها عن موقف لوليتا من الشبان فأجابتني وهي تتطلع لي بنظرات امرأة تعرف كيف تغوي الرجال.

وتنهدت مونا داهل تنهدة حادة قائلة: أوه إنها سكرة.. حلوة..

قالت هذا وتنهدت من جديد والتقطت كتابا من رف المكتبة. وسألتني بجد مزيف عن رأيي في مؤلفه وهي تقرب كرسيها من مقعدي بحيث استطعت أن أميز رائحة جسدها غير المثيرة من رائحة العطر الذي كانت تتضمخ به.. وإذا أخذت نفسي تراودني خطر لي خاطر مفاجئ: أتكون لوليتا قد دبرت لي مكيدة معها.

إذا كانت قد فعلت فإنها لا تكون قد هيأت لي البداية الصالحة المقبولة.

وإذ جاءتني هذه الفكرة أخذت أتجنب نظرات مونا التي كانت تتركز على وجهي وبدأت أحدثها في مواضيع أدبية ولم تلبث لوليتا أن أطلت علينا وكنستنا بنظراتها الباردة الاتهامية فانسحبت وتركتهما لشأنهما.

(١٠)

في بعض الأحيان عندما تكون لوليتا مستغرقة في تحضير واجباتها المدرسة نصف عارية تمص رأس قلمها وقد رفعت ساقيها وأراحتهما على ذراعي المقعد العريض، كنت أتخلى عن كل وقاري العلمي وأتناسى كل خصاماتنا وأنسى كل كبريائي كرجل، وأزحف على ركبتي إلى مقعدها، فتتطلع إلى بنظرة تحمل علامة استفهام غاضبة قائلة:

- أوه.. يكفي..!

كانت تقول ذلك لأنها لم تتنازل مرة وتؤمن بأن في وسعي دون أن أرسم لذلك خطة، أن أتوق إلى أن أدفن وجهي بين ملابسها وأن أتشوق إلى أن أحتضن ذراعيها الناعمتين الرقيقتين.

ولكنها كانت تنهرني قائلة:

- أرجوك أن تتركني لوحدي..

فإنهض من أرض الغرفة ووجهها يقلد باستهزاء معالم العصبية والتوتر في وجهي.. ولكني أتغاضى عن ذلك وأعرف إنني وحش خشن..

(١١)

في أوائل شهر ديسمبر دعتني مس برات مديرة المدرسة لمحادثتي بشأن اوليتا التي كنت أعلم أن درجاتها المدرسية الأخيرة كانت منخفضة وتقابلت مع مديرة المدرسة التي راحت تعطيني تقريرا شاملاً عن اوليتا.. قائلة:

ولنعد يا مستر هيز إلي موضعها أن التقرير يذكر أشياء إضافية: إنها تبدو حالمة بعض الشيء.. وهي تحب المزاح وتتقن تدبير المقالب.. ويمكن أن تتفوق على بطلة التنس لولا شرودها.. إلا أن المعلمة المشرفة على صفها لا تستطيع أن تقرر إذا كانت اوليتا ذات سيطرة استثنائية عن انفعالاتها أم لا.. ذلك أن المعلمة تقول أن اوليتا لا تستطيع أن تترجم مشاعرها وانفعالاتها بالأفعال.

وفي رأينا أن اوليتا تستطيع أن تحرز تقدما ممتازا إذا صرفت ذهنها إلى المدرسة.. فاوليتا ذات نزعة إلى أن تكون قليلة التبصر ومغفلة!. ولكننا نشعر بان عليك اولا أن تترك لطبيب العائلة أن يلقن اوليتا حقائق الحياة، وثانيا أن تسمح لها بالتمتع بصحبة أشقاء زميلاتها في نادي الشباب وفي بيوت آباء بناتنا.

- يمكنها أن تستقبل الشباب في بيتنا الجميل.

- أرجو أن تفعل ذلك، فعندما استجوبناها عن متاعبها رفضت أن تبحث وضعها المنزلي.. ولكننا سألنا عنه من بعض صديقاتها.. إننا نرى ألا تعارض في السماح لها بالاشتراك في تمثيلية (مطاردة السحرة) فقد مثلت بإتقان دور الحورية الصغيرة أثناء التجارب.. ويسرني أن أبلغك أن مؤلف التمثيلية سيزورنا في الربيع، وربما حضر بروفة التمثيلية في مسرحنا الجديد.. أعني أنه يجب عليك أن تتفهم أن الاشتراك في مثل هذا النشاط كان دائما شطرا من مرح الشباب ولهو الشابات.

لقد كنت دائما متفهما..

- لا شك.. لاشك، ولكن معلمة الصف، وأنا أجنح إلى الاتفاق معها، تقول أن لوليتا تعاني مركب الأفكار الجنسية التي لا تجد مفرجا عنها ولذا فهي تعجز وتهزأ برفيقاتها لأنهن يوعدن الشباب مواعيد "بريئة".

واستطردت المس برات تقول:

أن ما يقلقني هو أن معلمات لوليتا، وكذلك زميلاتها يجدنها عدائية مخالفة للقوانين.. غير مرتاحة إلى وضعها. كأنها حبيس ولذا فإن الجميع يتساءلون لماذا تعارض معارضة شديدة في أن تنال لوليتا كل المتع المسموح بها لمن في سنها.

- حسنا ليكن ما تريدين ولتشترك لوليتا في التمثيلية، ولكن على شرط أن تقوم البنات بتمثيل ادوار الذكور.
- إنني معبجة بطريقتك الفنية في النقاش، ولعل فكرتك ستفرح المس غولد المهتمة بالتمثيلية، ولكن دعنا نأتي إلى بحث قضية خاصة فنحن في مشكلة، إنني مخلوقة صريحة للغاية، ولن التقاليد والأعراف هي التقاليد والأعراف، إنني أجد صعوبة في الحديث عن الأمر، على كل أ،ت تعرف أن مدرستنا تضم بنات أحسن العائلات ويهمنا المحافظة على علاقتنا مع تلك العائلات. ولكن لوليتا تجعل ظروفنا صعبة عندما تستخدم كلمات قد لا تعرفها لكونك أجنبية.

***

(١٢)

في أسبوع عيد الميلاد أصيبت لوليتا بنزلة صدرية حادة طرحتها محمومة في الفراش.. وجاءت الطبيبة فنصحت بان تلازم الفراش أكثر من أسبوع.. وفي بادئ الأمر ارتفعت حرارتها لدرجة صعب علي معها أن أقاوم إغراء المسرات غير المتوقعة.. مسرات احتضان لوليتا وهي تتلظى بنار الحمى وتسعل وتتأوه بين ذراعي.

فلما استعادت صحتها أقمت حفلة لها دعوت إليها بعض الشبان، ولعلي سكرات بعض الشيء وأنا أحضر معدات الحفلة، واربما جعلت نفسي أضحوكة، عندما جاءت زميلات لوليتا واشتركن في تزيين الغرفة واختيار الاسطوانات الراقصة.

والمفروض في هذه الحالات أن انسحب كأب تاركًا لبنتي مجال اللهو، ولكنني لم أستطع فكنت أطل بين الحين والآخر لأسباب تافهة، رغم صعوبة ذلك.

وعلى كل فإن الحفلة لم تكن ناجحة، فقد تغيبت إحدى المدعويين الثلاثة برفيق لها فكانت هناك زيادة قدرها شابان.

وبعد انصراف المدعويين أطلقت لوليتا صيحة ضجر وتهالكت على المقعد وقد مدت ساقيها وذراعيها دلالة على تعبها وضجرها وأقسمت لي بان مدعويها الشبان كانوا أغلاظ الشبان الذين رأتهم في حياتها.

لقد سرني هذا الحكم منها على أولئك الشبان سرورا عظيما فاشتريت لها مقابلة مضرب تنس.

***

(١٣)

عندما أطل الربيع كانت لوليتا قد أصبحت هائمة مجنونة بالتمثيل والمسرح، إنني اكره المسرح وأعتبره شيئًا بدائيا متعفنًا فاسدا.

وكنت في تلك الفترة، عديم الاستغراق في أعمالي الأدبية. فلم اهتم بقراءة النص الكامل لـ (الصيادين المسحورين) المسرحية الهزلية التي كانت لوليتا تمثل فيها دور ابنة مزارع، وأغلب الظن إنها مزيج من أساطير تافهة.

وكان للوليتا طرق جذابة جدا لضم يديها الطويلتين، وتغمض جفنيها، وهي تبتهل إلى ألا أجيء لحضور تمرينات التمثيل.

وذات يوم رأيت (لو) في المساء توقفت دراجتها وتشد راحتيها على شجرة صغيرة في أسفل حديقتنا، فاضطربت وتأثرت بالغ التأثر لحنان بسمتها حتى حسبت أن جميع آلامي تضمحل. لقد قالت: (أتذكر اسم ذلك الفندق. انك تعرفه جيدا. وفركت طرف أنفها وصفرت بصخب.. الفندق الذي اغتصبتني فيه!. ألم يكن اسمه (الصيادين المسحورين؟) واستطردت حالمة: هذا ما كانت يعنيه؟. وصفعت بيدها جذع الشجرة اللامع، وهي تطلق ضحكة ثاقبة، ضحكة ربيعية ثم انطلقت نحو الشارع.

***

(١٤)

ولما كانت الموسيقى مرتبطة بميولها المسرحية فقد سمحت للوليتا بأن تأخذ دروسا خاصة في البيانو مرتين في الأسبوع لدى معلمة عانس.

وذات مساء.. كنت ألاعب في غرفة الجلوس جاستون بالشطرنج عندما رن جرس التليفون ولما تناولت السماعة سمعت صوت معلمة البيانو فسأل إذا كانت لوليتا ستأتي إلى دروسها يوم الثلاثاء القادم لأنها تغيبت عن دروسها يوم الثلاثاء الماضي كما تغيبت عن درسها هذا المساء.

وكما يمكن للقارئ أن يتصور فقد طار لبي وتشتت أفكاري وأنا أحاول الاحتفاظ برباط جأشي أمام جاستون الذي استطاع أن يغلبني هذه المرة وانصرف مرحا مبتهجا بينما سارعت أفتش عن لوليتا فوجدتها جالسة إلى مائدة المطبخ تأكل فطيرة وعيناها مثبتتان على المسرحية تحفظ دورها فيها ولما أحست بوجودي رفعت عينيها بنظرات حانية سماوية ولم يهتز فيها عرق عندما أنبأتها باكتشافي أمر تغيبها إنما أجابت بأنها كانت طفلة رديئة للغاية إلا إنها لم تستطع أن تقاوم الإغراء ولذا فإنها أمضت ساعات الدرسين

الموسيقيين في التمرن على المسرحية في الحديقة العامة مع رفيقتها مونا داهل.

سارعت إلى التليفون وطلبت بيت مونا داهل.

وسألتها عن صحة رواية لوليتا فأجابت بلهجة كانت من أكثر الناس تواضعا..

- أجل يا سيدي، إنني وحدي الملومة، أجل لقد كان ليلاً رديئًا وإنني آسفة جدا.

عدت من التليفون إلى غرفة الجلوس وأنا أتنحنح متشجعا، كانت لوليتا متهالكة على كرسيها الهزاز وقد فردت جدائلها بشكل رائع وهي تقضم ظفرا من أظفارها وهي تتطلع إلى بنظرات هازئة من عينيها النائمتين العديمتي القلب ورفعت على ذراع المقعد ساقًا عارية كانت هزتها يمنة ويسرة..

في تلك اللحظة تبينت فجأة كم تغيرت لوليتا منذ أن قابلتها قبل عامين أول مرة، وتساءلت هل أحدث هذا التغير في الأسبوعين الماضيين فقط؟ لقد بدت على قسماتها صيغة من الحنان الأسطوري.

ولكني لم أتأثر بهذا الحنان فقد كانت تلك اللحظة تستقطب غضبي المشفوع بعضات الغيرة والقلق.

أجل لقد تغيرت اوليتا، أن هيئتها الآن هي هيئة تلميذة ثانوية مهملة الهندام وسوقية الذوق فهي تستخدم مستحضرات التجميل الرخيصة وتلاطخ بها وجهها بأصابع معروقة قذرة دون الاهتمام بما يلامس بشرتها من معجونات ومسحوقات.

وتذكرت كم مرة كان تضرج بشرتها رقيقًا حبيبا في الأيام السابقة عندما كنت أدحرج رأسها مداعبا على ركبتي.. لقد حلت الآن حمرة مصطنعة غليظة مكان ذلك النضوج البريء في وجهها.

عندما رأيت اوليتا الغضب في نبراتي سارعت فلملمت نفسها وأنزلت ساقها البديعة وأسدلت عليها طرف ثوبها.. ولكنها ظلت تثبت نظراتها في وجهي بعنين محمرتين مليئتين بالتحدي بشكل أوحى لي أن اوليتا هذه اليتيمة تستطيع أن تكشفني للسلطات دون أن تتعرض للعقاب.

وأزحت صور ذكرياتي بينما قالت لي اوليتا هازئة:

- أجل ولكنني لست أشك في أنكما قد دبرتما الأمر بل لست أشك في انك تحدثت لها بكل شي بيني وبينك.

- لوليتا.. يجب أن نضع في الحال حدا لهذه الأشياء.. إنني مستعد لإخراجك من المدرسة ومن المدينة ولسجنك في مكان لا يعرفه إلا الله: ولكن يجب وضع حد لهذه المخاطرات.. إنني مستعد لأزهق روحك وإزالتها من الوجود في وقت يقل عن الوقت الذي تتطلبه تعبئة ثيابك.. يجب أن تكفي عن هذه المخالفات وإ لا لن يعرف احد ما الذي سيحل بك..

- لن يعرف أحد ما يمكن أن يحل بي.. هكذا.

انتزعت من تحت قدميها المقعد الذي كانت تؤرجحه فصاحت:

- هيه.. على مهلك.

فصحت فيها بدوري: قبل كل شيء اصعدي إلى غرفتك.

وأمسكت بيدها اجذبها وأخذنا نتصايح فقالت لي أشياء مريعة.. قالت لي إنها تكرهني وقالت إنني حاولت عدة مرات أن أغتصبها عندما كنت نزيل أمها.. وقالت أنها واثقة من إنني قد قتلت أمها وإنها سوف ستسلم لأول من يراوضها وإنني لن أستطيع أن أمنعها من ذلك.

فقلت لها أن تصعد إلى غرفتها وأمسكتها من ذراعها النحيلة فحاولت أن تتماص حتى خشيت أن تتكسر عظامها، وقلبي يذوب لوعة عليها.

بينما كانت تتطلع بنظرات لا تنسى، نظرات تنم عن غضب بارد والدموع الحارة تنحدر على وجنتيها.. وفي تلك اللحظة ظل جرس التليفون يقرع بإلحاح وربما منذ زمن فقد غطت ضجة شجارنا على رنينه، لقد تدخل التليفون في لحظة دراماتيكية.

ومن النافذة رأيت شبحا ينسل بسرعة عبر الخمائل في الحديقة، ورأيت الشبح يمتطي الدراجة وينفلت في الظلام.

لقد حدث ذلك والسيارة في جراج التصليح فكان علي أن ألاحقها راكضا، على جناح الخشية من الفضيحة.

لست أستطيع حتى الآن ورغم مرور ثلاث سنوات أن أتخيل منظر ذلك الشارع الموحش في تلك الليلة الربيعية دون أن ينتابني الذعر كان بعض الجيران يقفون عند البوابات فكنت أضطر إلى أن أقطع هرولتي حتى لا أثير شكوكهم. مضيت أركض، إنني أتصور نفسي مهرولاً زائغ العينين باحثًا عنها، ها قد وجدتها أن شابا يسندها في طريق

جانبي على حاجز حديد وهو يحتضنها! الحمد الله، أنها ليس هي.

وأخيرا بعد أن ركضت نصف ميل وجدت دراجة لوليتا أمام أحد محلات بيع المرطبات، فاندفعت إلى الباب واقتحمته إلى الداخل، أين لوليتا! إنها تتلفن من الكابين الخاص وما لبثت أن التفتت ولمحتني فعادت السماعة وسارت نحوي تميس دلالا قائلة:

- لقد حاولت أن أتصل بك في البيت. لقد اتخذت قرارا عظيما يجب أن تشتري لي يا بابا قدحا من المرطبات قبل أخبرك به.

اشتريت لابنتي الحبيبة كل ما طلبت من حلوى ومرطبات. واستمعت إلى إطراء صاحب المحل لجمالها ونضارتها.

وعدنا إلى البيت ومطر الربيع يهطل مدرارا، كانت تركب دراجتها وأنا أسير بجانبها عندما قالت لي:

- اسمع.. لقد قررت أمرا.. أنني أريد أن أترك المدرسة. وأكرر تلك التمثيلية التي أعطوني دورا فيها.. أجل لن أعود إليها.. يجب أن نغادر البلد في

رحلة طويلة ولكننا سنذهب هذه المرة إلى حيث أريد أنا.. أليس كذلك.

- أجل..
- سأفعل ما تريد، ولتذهب التمثيلية إلى الجحيم، هل تفهم ما اعنيه؟

ما كدنا ندخل منزلنا حتى خلعت لوليتا بلوزتها ونفضت شعرها المبتل ومدت إلى ذراعين عاريتين ورفعت ساقًا قائلة:

- احملني إلى فوق.. إنني أشعر بميل إلى الحب.

قد يهم علماء النفس أن يعرفوا أنه كان بوسعي في تلك اللحظة أن أذرف سيلاً من الدموع.. وأبكي.

***

(١٥)

أخرجنا السيارة من الجراج بعد أن انتهى تصليح الأعطال وودعنا مدرسة بيردسلى بحجة أن ارتباطي بعقد مع إحدى شركات السينما في هوليوود وأجبرنا على الرحيل المفاجئ مع لوليتا.

كنت أدغدغ فكرة اجتياز الحدود على مهل إلى المكسيك فانا اليوم أشجع مما كنت عليه قبل عام، وهناك أقرر ما أصنع بمحظيتي الصغيرة.

وكانت (لو) قد رسمت خط رحلتنا بحماسة مدهشة. ترى هل فقدت بفضل تأثير المسرح. مزاجها اللامبالي الطفولي، وأصبحت تظهر نافذة الصبر باكتشاف عجائب الحياة والواقع.

وفي إحدى وقفاتنا أمام إشارة المرور، أتت سيارة أخرى ووقفت إلى جانبنا، ونظرت إلينا امرأة شابة ذات قوام ممشوق (أين تراني قد رأيتها) فحيت (لو) ثم التفتت نحوي باندفاع وقالت وهي تشدد على بعض الكلمات: (من المؤسف أن تنتزع دولي من دورها –وليتك سمعت التهاني المذهولة من المؤلف بعد إجراء التجربة).

وهمست لوليتا بين أسنانها (هذه هي الإشارة الخضراء أيها الإبله! أنطلق..).

***

(١٦)

ومن جديد رحنا ننتقل من فندق إلى آخر.. وكنا في كل هذه الفنادق ندفع عادة عشر دولارات من أجل غرفة بسرير مزدوج تصطف على شبكة بابها أسراب من الذباب التي تتحايل بشتى الوسائل للدخول إلى الغرفة.. حيث لا تزال الوسادة تحتفظ عادة بشعرات أو دبابيس من رأس نزيلة الليلة السالفة.

ومع أنه لم يكن من خطر من تعرض للسرقة فلقد احتفظت دوما ضمن أمتعتي بمسدس ورثته من أم لوليتا مع بعض النصائح الخاصة باستعماله وتقول تلك النصائح أنه مصنوع خصيصا من أجل الاستعمال المنزلي ومن أجل السيارة ومن أجل أن يحمله الإنسان.

لقد تمرنت على التصويب بالمسدس وأصبحت أصيب أي هدف متحرك.

***

(١٧)

انطلقنا في رحلة نحو الغرب من الولايات المتحدة ولكن الجو لم يكن دائما كما أشتهي فانا لا أستطيع أن أقسم جازما إنها استطاعت في مناسبة أو مناسبتين أثناء الرحلة أن تتصل بأشخاص مجهولين أو أن تبوح لهم ببعض المعلومات عن علاقتنا.

فذات مرة كنت أملأ سيارتي بالزيت والبنزين عندما تركتني لوليتا لقضاء حاجة ولكنها تأخرت كثيرا وأخذ تأخرها يثقل على ذهني.. ولكنها لم تكن المرة الأولى والأخيرة التي أخذت أجيل فيها أبصاري يمنة ويسرة وبكثير من القلق والانزعاج فقد تكرر ذلك الأمر وكانت له ذيوله من ناحية تشيستنات كورت.

كانت قد أرادت أن تمر في طريقنا إليها عبر مدينة كاسبيم لأنها تبعد ٣٠ ميلا فقط عن مسقط رأسها.. فرافقتها على ذلك ولكنها في صباح اليوم التالي بدت قلقلة لا تستقر على حال.

كنت قد شعرت لأسباب بديهية بتخوف من هذه الزيارة الخاطفة على الرغم من إننا اتفقنا إلا نلفت الأنظار إلينا وأن نبقي في السيارة وألا نبحث عن الأصدقاء القدامى.

لقد غيرت فكرها وارتحت لذلك كثيرا وقالت لي إنها تريد أن تبقى في الفراش مع مجلاتها حتى الوصول على الأقل لأنها لا تشعر بأنها على ما يرام.. وأنهت اشتيائها لبعض الفواكه فقررت الذهب لشراء ما تشتهيه..

وفي المدينة حلقت شعري وقضيت بعض احتياجاتي فلما عدت بعد ساعة ونصف الساعة وجدت الخدم ينظفون الممرات في ذلك الفندق الريفي الذي حللنا فيه والمؤلف من أكواخ منفصلة في الحديقة، ورأيت قرب غرفتنا شابا عتيا كان يحمل نقالا إلى سيارة شحن فغاظني منه الابتسامة التي حياني بها إذ مررت به.

ودخلت الغرفة فوجدت لدهشتي لوليتا مرتديه ثيابها وقد جلست على حافة السرير وكان قميصها الضيق يبرز مواهب صدرها ومع إنها لم تغتسل فقد كانت قد صبغت شفتيها بالحمرة وفرشت أسنانها الناصعة. كانت جالسة ويداها في

حجرها وهي ترسل نظرات حالمة ببريق شيطاني لم يكن يتعلق بي بحال من الأحوال.

ألقيت بكيس المآكل والفواكه جانبا وتطلعت إلى قدميها فوجدت نعليها متسختين بالوحل ولذلك قلت لها متهما:

- لقد خرجت أثناء غيابي.

- لقد استيقظت لتوي وأطللت من البوابة إذ خيل إلى انك قادم.

رأت كيس الفواكه فاتجهت إلى الطاولة بينما كنت فريسة شكوكي الغامضة.. أتطلع إلى الوحل العالق بنعليها دون أن أنبس ببنت شفة متسائلاً هل خانت ثقتي في غيابي.. وفي الحال تذكرت ابتسامة ذلك الحمال الشاب، فهرعت إلى الباب أفتش بنظراتي عنه ولكنه اختفى مع سيارته..

***

(١٨)

شاهدت سيارة حمراء مكشوفة تتبعنا لاحظت ذلك بانفعال وخشية وغيرة فقد حسبت في بادئ الأمر أن سائقها عشيق لوليتا، فتبعنا ليستغلني في غيابي ثم ما لبثت المخاوف والأخيلة أن اجتاحتني وهزت أعماقي بالرعب فقد يكون مطاردنا شرطيا يريد التحقيق في تصرفي مع هذه القاصرة.

إنني لا أستطيع بذاكرتي الضعيفة أن أحدد اليوم الذي تأكدت فيه من أن السيارة الحمراء المكشوفة تطاردنا، ولكنني أذكر المرة الأولى التي رأيت فيها وجه سائقها بوضوح.

كنت أسوق سيارتي ذات أصيل والمطر يهطل بغزارة وكان الشبح الأحمر يبدو ورائي يطاردني بإلحاح وبشكل لا مهرب منه كداء السرطان وفجأة توقفت عند محطة بنزين لأملأ خزان سيارتي وأشتري نظارة شمس فوجدت مطاردي يقف بسيارته عند قهوة قريبة، ولما دخلت إلى مخزن المحطة لشراء النظارة ألقيت نظرة إلى الخلف فلمحت منظراً رهيبا كان مطاردي بوجهه العريض وجسمه العتي وشاربيه المفتولين وسرواله البني القاتم يستمع إلى لوليتا وهي تطل بصدرها من نافذة السيارة وتكلمه بسرعة ويداها تشتركان في

الحديث مع لسانها، كانت تبدو جادة للغاية، ولكن الذي أدهشني هو إنني أحسست من شكل حديثها أن الرجل مألوف لديها، وإنها معتادة على محادثته، كانت هناك ألفة غريبة بينهما كما لو كانا يعرفان بعضهما بعضا منذ أسابيع.

ثم رأيته يحك ذقنه ويهز برأسه ويعود قافلاً إلى سيارته فإذا هو رجل مربوع القامة في مثل عمري تقريبا.

- ما شأنك مع ذلك الرجل؟
- الرجل؟ أوه ذلك الرجل، لست أدري لقد سألني إذا كان عندي خريطة، أظن أنه ضل طريقه.
- اسمعي يا لوليتا، لست أعرف إذا كنت تكذبين أم تصدقين ولا يهمني ذلك الآن ولكن ذلك الرجل ظل يلاحقنا طيلة هذا اليوم كما كانت سيارته في فناء الفندق أمس وأظن بأنه شرطي، انك تعرفين جيدا ماذا سيحدث وإلى أين ستذهبين، إذا علمت السلطات بأمره، وهكذا فانا أريد لمصلحتك ومصلحتي أن أعرف ماذا قال لك، وماذا قلت له..
- لو كان شرطيا فإن أسوأ ما نفعل هو أن نريه إننا خائفان منه تجاهله يا أبي.

على إننا تابعنا ذلك اليوم غير مطاردين، ولكن مطاردنا عاد إلى الظهور وراءنا في اليوم التالي، عاد كنوبة مرض مزمن وكانت حركة المرور خفيفة ذلك اليوم على ذلك الطريق الجبلي، وكان يتابعنا عن بعد ولكن ما من سيارة دخلت المنطقة الفاصلة، فظللت أرى من مرآتي وجهه الجامد الذي يشبه وجه التمثال. وبدت سيارته كمن تسير فقط لأن خيطًا حريريا خفيا يشدها إلى سيارتنا، وطيلة الوقت كنت أشعر بوهج خاص يأتيني من يميني من صوب لوليتا التي تضرجت وجنتاها والتمعت عيناها ببريق مرح.

ومررنا بمدينة مزدحمة الطرق فلما خرجنا منها كان مزاحمنا قد اختفى عن الأنظار.

ولكن رغم ذلك فاني لازلت أشك في أمره.

***

(١٩)

أثناء رحلاتنا، مررنا ببريد مدينة ويس لنلتقط رسائلنا من شباك البريد فقد كنا قد عينا مكتب بريد ويس كعنوان لنا، كانت هناك رسالتان، واحدة تحتوي على شهادة لوليتا المدرسية وكانت الثانية في مغاف ذي مظهر خاص، ففتحته وأخذت أطالع محتوياته على اعتبار إنني أفعل شيئًا تتوقعه لوليتا، واستغرقت في قراءة الرسالة مستندا إلى كشك بائع الصحف.

ولما انهيت قراءة الرسالة تطلعت أريد أن استفسر من لوليتا عن صاحبتها، ولكنني لم أجد أثرا للوليتا فبينما كنت أطالع الرسالة هزت لوليتا كتفيها وأختفت.

هل اختفت إلى الأبد؟

وقلت لطالما تعجبت بعد هذه الحادثة بسنوات لماذا لم تختف إلى الأبد، ذلك اليوم، هل كان المانع أن ثوب استحمامها كان في سيارتي المقفلة، هل كان عدم اختفائها شطرا من خطة عامة.

في تلك اللحظة لم أدرك شيئًا سوى إنها تركتني إلى الأبد، وبدت لي الجبال الجرداء المحيطة بالمدينة كأنها تتموج وتقهقه ضاحكة ساخرة في وجهي وبدت لي صخورها تتموج بصور لوليتا وبدت لي الصور تذوب وتنحل في وهج الصخور.

أخذت أدور في كل مكان باحثًا عنها في كل مقهى ومطعم وصالون مرطبات، ودكان بقيت قليلا في سيارتي وسط الشارع ثم فتشت الحديقة العامة، وفجأة قلت لنفسي انك أبله يا همبرت إذ تشك فيها فهي خليقة بان تعود في ظرف دقيقة.

ولقد عادت فعلا!

جاءت فجأة نحوي وأنا أوقف السيارة بمحاذاة الرصيف فأبعدت اليد التي وضعتها على فمي بابتسامة خجولة وفاجرة وصحت فيها:

- اصعدي إلى السيارة.

أطاعتني، فصعدت بينما نزلت أزرع الرصيف جيئة وذهابا متصارعا مع أفكار عديمة الأسماء محاولا أن أرسم طريقة لمعالجة مكرها.

ولم تلبث أن غادرت السيارة ووقفت من جديد إلى جانبي فاتجهت مشاعر سمعي إليها وهي تهمهم لتخبرني بأنها قابلت صديقة قديمة لها.

- نعم: من هي؟ - دوللي

إذن هذا هو المبرر النهائي ولكن دعينا نبحث من جهة أخرى لقد بقيت غائبة ٢٨ دقيقة فماذا فعلت أنت ودوللي في خلالها؟

- ذهبنا إلى دكان الحلويات.

ورغم أني كنت أشك في جوابها هذا، إلا إنني أنطلقت بسيارتي كالسهم، ولكن غاظني إنها كانت تنظر إلى متحدية.

ودون أن ألفظ بكلمة وجهت إليها صفعة عنيفة تركت كدمة سوداء على وجنتها.

وتابعت الطريق وهي تجهش وتبكي وأنا أحس بوخزات التعذيب الباطني العذب، وعندما وصلنا في المساء إلى مدينة (ميرانا) بدأت أغمرها بحبي محاولا مصالحتها فقبلت حتى أظافر قدمها الطويلة الصفراء، ولكن دون فائدة فقد كانت الأقدار قد حكمت بانتهاء أمرنا وقضت بان ادخل بعد قليل دوامة جديدة من العذاب والاضطهاد.

فإنني أن أذكر إنني لمحت بما لا يقبل الخطأ وأنا أعبر احد الشوارع مدينة ويس تلك السيارة الحمراء المكشوفة، ولكن كانت تنقل أربعة من الشباب الصاخبين بدلا من صاحبها.

لقد صادفت حالة جديدة كل الجدة بعد مدينة ويس فلقد تمتعت ليومين باطمئنان نفسي إلى إننا لم نكن أبدا متبوعين ولكنني ما لبثت أن شعرت بان مطاردنا قد غير خطته وأنه لا يزال يتبعنا ولكن في سيارة أجرة.

أنه حرباء ذلك الرجل الذي كان يغير من حين لحين السيارة التي يطاردنا بها. مما جعلني أحس بارتياع من كل سيارة تسير وراءنا.. كما أن ضرورة أن أكون حذرا من ذلك الرجل ذي الشارب المصقول والصلعة الحمراء قد قادتني إلى تحفص كل سيارة على الطريق.. أمامي وبجانبي وورائي.

تابعنا رحلتنا المرعبة، وأنا شارد الفكر تطاردني خاطرة توحي إلى بأنني خليق بأن أرتكب جريمة قتل إذ ضحت الظواهر التي توحي بأنني بت على حافة الجنون.

بلا شك كنت غبيا عندما سمحت للوليتا أن تدرس التمثيل إذ أن ذلك وسع من أفقها وجعلها كثيرة الحيل سريعة البديهة.. قادرة على الاختلاق سريعة الأكاذيب.

ومع أن لوليتا كانت قد تقدمت في السن فإنها لم تزل تلك الحورية المرغوبة أكثر من أي وقت مضى تتألق أطرافها المشمشية اللون. ولا تزال أنيقة التقاطيع خفيفة الحركة. ولا تزال تعيش نزوات المراهقة فهي تفضل التمثيل على السباحة على التنس.. ولا تزال عنيدة مصممة على أن تربح كل مباراة تنس بيني وبينها.. وكانت في لعبها بريئة غير مخاتلة بحيث كان أي لاعب يستطيع أن ينتصر عليها.

أذكر ذلك بمناسبة الحادثة التي جرت لنا في ملعب تنس الفندق، فقد كنت ألاعبها متمتعا بمتابعة أناقة خطوط حركاتها عندما شعرت بالعطف فاتجهت إلى الحنفية حيث اقترب مني شاب في قميص احمر عرف نفسه بأنه بيل ميد وبان رفيقته في اللعب هي الممثلة (فاي بيج) واقترح علي أن نشرب كأسا من الويسكي مشيرا إلى رفيقته التي لمحتها تحادث لوليتا.

وكنت على وشك أن أعتذر عندما سمعت صوت صبي مكتب الفندق ينادي باسمي بأنني مطلوب على التليفون من أجل مكالمة خارجية مستعجلة فارتديت سترتي وقلت للوليتا بعد أن تحسست المسدس في جيبي إنني عائد بعد لحظة.. وابتسمت فردت لي الابتسامة.

وللأسف لم تكن هنالك مكالمة.. كانت خدعة ولا أدري لماذا كانت هذه الخدعة.. وما خلفها.

***

(٢٠)

- لو.. لولا.. لوليتا.

سمعت نفسي أهتف باسمها من باب غرفة الفندق بشيء وفير من القلق والألم.. وجدتها أخيرا في وسط مياه الحمام فقد خرجت قبل أن أنتهي من ارتداء ثياب الاستحمام وأخذت تلاعب كلبا مرحا.. بدلاً من أن تلاعبني.

خرجت مرتديا الروب دي شامبر لأنني قصدت فقط أن أعرف مكانها إذ لم يكن بوسعي أن أسبح وقلبي في هذه الحالة.. لقد توقفت عن الصياح لأراقبها تركض وتتمايل

بالمايوه الأحمر المشدود.. كان في حركتها طابع من النشوة والجنون يجعلها أكثر من فتاة صغيرة مرحة بل حتى أن الكلاب بدا مدهوشًا من شطط حركاتها التي تكشف مشتهياتها.

وضعت يدا حانية على صدري وأنا أرقب الوضع وخيل لي أن المسبح الأزرق أصبح ضمن وجودي وخيل لي أن أعضائي تسبح فيه كما تسبح القواقع الطافية على مياه البحر عند الريفيرا الفرنسية.

وجدت أحد المستحمين قد غادر المسبح ووقف نصف مختبئ في ظل الحاجز وهو يتابع لوليتا بأنظاره، كان يقف وراء ستار من الضوء والظل، ستار يشوه معالمه وكان يقف متنكرا بعريه وقد ترامى ما تبقى من شعره عن طرفي رأسه.. فتطلعت إلى وجه هذا المدعي يتأمل (ابنتي) بنشوة.. وقد جرفته هذه النشوة فاستند متهالكًا إلى عمود. بينما استمرت لوليتا في لعبها مع الكلاب وأخذت تلوح بساقيها في الفضاء.

لقد خشيت طيلة الوقت أن يكون من أولئك الشبان الذين يلهبون خيال لوليتا. ولكني رأيت عندما انحسرت الشمس أنه

ليس بذي خطر.. مجرد مخلوق تافه يشبه ابن عمي تراب السويسري الذي كان يشرب بيرته مخلوطة باللبن.

وفجأة كفت لوليتا عن لعبها..

***

(٢١)

خرجت لوليتا من السيارة فرأيتها ترتجف قليلاً فسحبت أن ذلك من فعل هواء الغسق.. ولكن عندما دخلت إلى الشقة تهالكت على أحد المقاعد ودفنت وجهها بين ذراعيها المتشابكين فوق الطاولة وقالت إنها مزعوجة للغاية.

إنها تمثل.. هكذا خيل إلى.. أنها تمثل حتى تتهرب من مداعباتي ومعانقاتي. ولكنني كنت التهب شوقا فلما حاولت معانقتها بدأت تتأوه بشكل محزن غريب، إذن إنها مريضة، إنها مريضة، لقد كانت بشرتها تلتهب فعلا بالحرارة ولما قست حرارتها وجدتها تجاوزت الأربعين بأربعة أعشار.

كنت أعرف أن المراهقات يتعرضن لحالات هستيرية تصل حرارتهن إلى درجات تبدو خطيرة إذ وصل إليها الإنسان العادي.

ولقد كان بوسعي أن أكتفي بإعطائها في حالتها بعض الأسبرين وقليلا من الخمر لتشفى الحمى لولا إنني فحصتها وجدت عندها التهابا شديدا في الحنجرة، فنضوت ثيابها عنها وكانت رائحة أنفاسها حارة كاوية وكانت ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وكانت تشكو من تصلب مفاجئ في أعلى ظهرها مما جعلني أظن كما يفعل الآباء الأمريكيون عند هذه الحالة بأنها مصابة بنوبة شلل الأطفال.

ولما وجدت أن لا أمل في أن أقاربها لففتها في الروب دي شامبر وحملتها إلى السيارة الدكتور بلو الذي قيل أنه أحدث المستشفيات.

وفي المستشفى طمأنني الطبيب على إنها حالة من الحمى الوافدة وأنه عالج مثلها أربعين حالة هذا الموسم.

واضطررت أن أغادر المستشفى تاركًا لولتا بين أيد أمينة لا أثق بها كثيرا وتحت رعاية ممرضة خاصة.

وفجأة وأنا أعود إلى الفندق خيل إلى أن مرضها ليس إلا تطورا جديدا في خطة طالما اشتبهت بها في خواطري فعذبتني احتمالاتها طيلة الرحلة وتصورت أن هناك شرطيا

سريا أو عاشقًا متخفيا. قد دبر هذا المرض حتى يفصلني عن لوليتا نهائيا.

عند ذلك لم استطع إلا أن أعود مرة أخرى إلى البار أغرق مخاوفي وخيالاتي في الشراب.

وبعد ثلاثة أيام تحسنت حالة لوليتا كثيرا وقال الطبيب إنها ستشفى كليا بعد يومين، ولقد زرتها ثمان مرات في هذه الأيام الثلاثة. ولست أذكر من مجريات هذه الزيارات غير زيارة واحدة ظلت مرتسمة بوضوح في ذهني فقد حملت معي عدة كتب ثمينة سافرت ٦٠ ميلاً لشرائها فلما اقتربت من غرفتها خرجت من الباب الممرضة الخاصة ماري لور التي كانت قد أخذت تكرهني منذ اليوم الأول والتي وجدتها تشبه الحيوانات.. ووجدتها تحمل صينية الفطور وتضعها على الكرسي في الصالون فلما لمحتني اندفعت عائدة إلى الغرفة كأنها تريد أن تحذر لوليتا من أباها الطاغية يتسلل إلى غرفتها حاملا الورود والكتب.

قبيل أن أدخل تطلعت إلى صينية الفطور لأرى إذا كانوا يغذون لوليتا جيدا فوجدت بين الصحاف مظروفًا على اسم أحد الفنادق ولكنه كان خاليا من أي كتابة، فلما التقطت

المظروف الفارغ ظهرت ماري لور من الغرفة فجأة وقالت لي ساخرة:

من الأحسن ألا تلمس شيئًا فقد تحرق أصابعك.

- لقد ظننت أنها فاتورة ولم أعرف إنها رسالة عاطفية.

قلت هذا ودخلت إلى غرفة لوليتا فتبعتني الممرضة لتقول:

- اسمعي يا لوليتا أن أباك يظن انك أنت التي تتلقين الرسائل من صديقي.. كلا يا مستر همبرت ليست الرسالة للوليات إنما هي لي.

قالت هذا وتركت الغرفة بينما كانت لوليتا تتطلع إلى أو إلى لا شيء بنظرات رديئة وقد احمرت وجنتاها وانسدل شعرها واستراحت ذراعاها العاريتان على الملاءة النظيفة.

قالت لي: ما هذه الأزهار الجنائزية.. ولكن شكرا أية حال ثم هل لك أن تكف عن حشو كلامك بالفرنسية فذلك يضايق الجميع.

ومن جديد عادت الممرضة الحيوانية تحمل الصحيفة المحلية فخاطبت لوليتا من جديد بالفرنسية.

ألم تعودي تحبينني يا كارمن؟

كنت قد تعودت على اسم كارمن تدليلا.. وكنت أعرف إنها والممرضة تتآمر على حبي اليائس.

بل سأذهب إلى أبعد من ذلك وأقول وفقا لما اكتشفت بعد ذلك أن لوليتا كانت تخادع ماري وتلعب لعبة مزدوجة إذ قالت لها إنها تريد أن تعيش في كنف عمها المرح وليس في كنفي أنا الأب ذو المزاج السويدائي.. القاسي المتعنت.. ولعل ماري قد ظنت بأنني أمنع لوليتا من متعة حب وعطف عمها (أخي الزعوم).

ولما خرجت الممرضة قلت للوليتا والغصة في حلقي وأنا أكابد العناء حتى أستطيع أن أبلع ريقي.

- اسمعي يا كارمن.. سنترك هذه المدينة الكريهة حالما تغادرين سرير المرض.
- أجل.. وبالمناسبة أريد أن ترسل لي جميع ثيابي.

تابعت كلامي قائلا:

- يجب أن نرحل لأنه ليس هنا من سبب للبقاء هنا.
- ليس هناك من سبب للبقاء في أي مكان.

وجاءت الممرضة لتذكرني بان وقت الزيارة قد انتهى فغادرت الغرفة طائعا ولوليتا تذكرني بأن أحمل إليها ثيابها معي غدا.

ولكنني في اليوم التالي كنت أرتجف وأسعل.. كنت فريسة حمى مفاجئة، ولذا فلم أذهب إنما أرسلت لها حقيبتي ثيابها مع ابن الأرملة صاحبة الفندق. وأنا أتصور بان الغاية كلها هي أن تعرض لوليتا على الممرضة كنوزها.. وظللت يومين أهذي في فراشي فريسة الحمى.

وبعد الظهر سمعت قرعا على باب غرفتي.. وكان صبي الفندق يحمل خبرا هو أن الممرضة ماري قد تلفنت تسأل إذا كنت أستطيع القدوم إلى المستشفى اليوم؟. فقلت له أن يبلغها بأنني سألازم فراشي طيلة اليوم وأنني سأذهب غدا إذا تحسنت أحوال ابنتي.

فلما خرج أخذت أجرع الشراب إلى أن نمت مخمورا وصحوت في اليوم التالي وقد استعدت كل صحتي وكان أول ما فعلته إنني خرجت إلى مكتب الفندق إلى المستشفى أسأل:

وكان الجواب أن كل شيء على ما يرام.. وأن ابنتي قد شفيت تماما وتأكد الطبيب من شفائها ونظرا لأنني كنت

مريضا فقد جاء عمها المستر جوستاف في سيارة كاديلاك ودفع فاتورة الحساب نقدا وطلب إليهم إبلاغي بأنه ليس لي أن أقلق من مرضي وأنه يجب أن أدفئ نفسي جيدا وانهما ذاهبان إلى مزرعة جدة لوليتا كما اتفقنا على ذلك.

وذهبت فورا إلى المستشفى ولحسن الحظ لم أجد الممرضة وإلا فإن اضطرابي كان كفيلا بان يفضح ما بدر مني من حالات عصبية.. فلم يكن بوسعي أن أقول لهم أن جوستاف ليس أخي.. فليس لي أخ.. وأن لوليتا ليست ابنتي.

وتظاهرت للدكتور بلو بان دموعي هي نتيجة أسفي على إدماني المشروب رغم اصابتي بمرض قلبي.. اعتذرت للجميع وهمست لنفسي وأنا أخرج بأنني لازلت أملك مسدسي ولازلت رجلاً طليقًا حرا.. أجل لازلت حرا أستطيع أن أطارد الهاربة الآبقة.. ولا زالت حريتي تمكنني من أن أزيل من الوجود.. ذلك الأخ.. أخي جوستاف.

(٢٢)

قضيت أياما وأنا أسير في الطرقات بحثًا عن الهاربين.. وللقارئ أن يتصورني متظاهرا بالوقار.. متظاهرا بحب الطبيعة وأنا أخفي وراء قناع هدوئي حزني الهائل وأتزين بابتسامة وأنا أفتش سجل كل فندق على الطريق متظاهرا بالبحث عن قريب ظننت أنه ينزل في الفندق.

ثم اضطررت إلى أن أقوم بتحقيقاتي بشكل أكثر حذرا مما اضطرني إلى النزول في كثير من الفنادق.. وبهذه الطريقة تفقدت سجلات ٣٠٠ فندق ونزل حصلت من عشرين منها على الأقل على ما يشير إلى تنقلات ذلك العفريت الذي أخذ لوليتا والذي حل معها أحيانًا في غرف كنا قد نزلنا بها قبلا.

ولقد اكتشفت بأنه عالم بتحرياتي إذ كان ينتحل لنفسه أسماء أفهمها وحدي..

ظلت المطاردة مستمرة وقد تكشف جوستاف في خلالها عن مهارة عظيمة.. كان دائما ينجح في تضليلي ولكنه كان دائما يترك لي مجالا للأمل بأنه قد يكشف ذاته في المرة

القادمة.. كانت اللعبة شيطانية تهدم الأعصاب.. ولكنه لم يكشف نفسه أبدا.

(٢٣)

عدت أخيرا إلى بيردسلى.. وقد خيل إلى أن المعلم الوحيد.. الرجل الوحيد الذي كان يعلم في بيردسلى باستثناء جاستون والأب ريفور مورتيس، خيل إلى أنه هو الذي خطف لوليتا وخاصة أني تذكرت بأنها لم ترض يوم كنا في بيردسلي أن أحضر محاضرة يلقيها في قاعة المدرسة.. وتذكرت أن جاستون كان قد وصف هذا المعلم بأنه محاضر بارع.

لما وصلت إلى بيرد سلى علمت أن ريفر الأستاذ المنشود سيلقي محاضرة في القاعة فاعتزمت أمرا خاصة وقد علمت أنه عازب.. فذهب وانزويت في أحد المقاعد مشمر الأكمام والمسدس في جيبي.. وفجأة أدركت بأنني أضيع وقتي وأنه ليس معقولا أن يكون خاطف لوليتا هو هذا الأستاذ.

(٢٤)

هذه هي قصة لوليتا، ولكن أما وقد وصلت إلى هذه المرحلة فلعلني يجب أن أدعوه كتابا عن لوليتا الضائعة المختفية.

فترة غريبة من حياتي هي فترة اختفاء لوليتا لمدة ثلاثة أعوم ولعل من أبرز ملامح هذه الفترة إنني لم أكن احلم قطعا في منامي بلوليتا.. ولكني كنت دائما أراها ماثلة بكل الملامح في أحلام يقظتي.

وفي هذه الأثناء نظمت في عزلتي عدة قصائد أناجي فيها لوليتا.. أذكر منها:

مطلوبة مفقودة: لوليتا هيز..

الشعر كستنائي والشفتان من قرمز..

عمرها خمسة آلاف وثلاثمائة يوم..

أين تختبئين يا لوليتا هيز؟..

لماذا تختبئين يا حبيبتي؟..

ها أنا بعد فراقك.

كسير القلب غائم النظرات..

أي بساط ريح يحملك؟

وأين تأوين في هذه اللحظات المسحورة؟

ألا تزالين ترقصين أيتها الصغيرة الحبيبة؟

آه.. ما أحلى أمسيات الماضي.

وعناقنا الطويل قرب النور، يا حبي.

سعيد هذا الذي يطوي الفيافي معك؟

لوليتا يا حبي.. لوليتا يا جنوني.

يا ذات العينين النائمتين.

يا من لم تكن تغلق عينيها يوم كنت أقبلها..

أن العذاب والبغض يأكلانني.

إنني أموت حبا وغيرة..

لوليتا.. أين أنت؟.

إنني أموت بدونك أنت.. الخ.. الخ.

إنني إذ أحلل الأشعار فإنني ألاحظ بأنها حقا وليدة خيال رجل مهووس، فكل ما فيها من وزن مهتزا إنما ينسجم فعلا مع انفعالاتي من خيالات وذكريات حياة محمومة مع لوليتا، لقد انغمست في الشعر قرأت كثيرا كثيرا من الشعر،

وكتبت كثيرا من القصائد.. ولكنني لم أضف لحظة ضغط حافز الانتقام الذي كان يهيمن على خواطري.

وكنت ارتاد الملاعب والحدائق العامة حيث تلهو الصغيرات بحثًا عما يتكشف من أجسادهن الناعمة المراهقة بحثا عن مثيلات لوليتا.. عن أجساد ترمز إلى ما في جسدها من معين مشبوب في إطار صبياني.

هنالك فارق واحد انتباني، ذلك إنني لم أفكر لحظة في أن أتمتع بالنعمة مع عذراء مراهقة صغيرة سواء كانت حورية أصيلة، أم حورية مزيفة.. أجل لم تطارد أحلامي مثيلات لوليتا ولم أجد غيرها في خيالي يقطن تلك الجزيرة السحرية. جزيرة الحوريات المراهقات، فلقد انتهت صلة غيرها بهذه الجزيرة والوقت الحالي على الأقل.

(٢٥)

ظهرت ريتا على مسرح حياتي.. كان عمرها يبلغ ضعف عمر لوليتا.. بينما بلغ ثلاثة أربع عمري.. وكانت فتاة بالغة نحيفة سوداء الشعر شاحبة البشرة. ذات عينين مستطيلتين. و ملامح واضحة الخطوط وذات عجز يأخذ بمجامع القلوب.

لقد كانت بركانا حيا وأظن أن دما إسبانيا، أو بابليا يسير في عروقها.

قابلتها ذات ربيع في بار مظلم كانت فيه مخمورة سكرى ولقد أصرت حينما رأتني على إننا كنا زميلي دراسة ووضعت يدها النحيلة على يدي الخشنة ذات الشعر الكثيف، ومع إنها قد أثارت بعض نفوري فإنني قررت أن أعطيها الفرصة لتثبت حبها لي وهكذا تبينتها صديق وحبيب.

كانت ريتا لطيفة وبالغة اللطف ورياضية الروح بشكل كانت فيه لا تأبى أن تستسلم لأي مخلوق محزون. بل لأي مخلوق يتظاهر بالتعاسة كيما تقوم له بعض العزاء. أجل كانت رقيقة القلب في هذه الشئون.

عندما التقيت بها أول مرة كانت قد اكتشفت لتوها أن زوجها الثالث يخونها، كما اكتشفت أن عشيقها السابع قد هجرها كذلك مثلما فعل قبله ستة عشاق. وقد همها الأمر، أما هؤلاء الذين مروا بحياتها مرور السحاب فإنها لم تهتم بأمرهم، وعلمت أن لها أخا ذو مركز سياسي مرموق ويشغل منصب العمدة في بلدته وعلمت أن هذا الأخ يدفع لأخته الصغيرة العظيمة (ريتا) شهريا بضع مئات من الدولارات بشرط ألا تعود إطلاقا إلى البلدة.

وحينما أخبرتها إنني ألاحق فتاة معينة من أجل أن أبقر بطنها وافقت رأسا على الخطة، بل إنها قامت بتحريات خاصة أوقعتها في يد محتال فعادت إلى البيت ذات ليلة وقد فرغت حقيبتها من المال وأصيبت هنا وهناك بكدمات في جسدها.

ومهما تكن مقالبها فقد كان فيها من الدلال والمهارة في القبلات ما أبعدني إتيان المنكرات من الأعمال بل أن عشرتها جعلتني أكف عن مطاردة الهاربة وجعلتني أظن أن خاطفها ليس إلا رجلاً بربريا بدائيا يتمتع بها.

وكما ظهرت ربما في حياتي فجأة، فقد ذهبت فجأة ولكن بصورة أكثر إنسانية.. وهذا ما جعلني أعود من جديد في عملية البحث عن الهاربة.. لوليتا.

(٢٦)

ذات يوم استلمت رسالة من جون فارلو جاري السابق في رامدال وهو المحامي الذي كلفته بالإشراف على تصفية تركة زوجتي المتوفاة أم لوليتا هيز شارلوت.

وقد فوجئت به يقول في رسالته أنه عاد إلى أمريكا الجنوبية وعهد بجميع أعماله إلى زميله المحامي جاك ريندمولر في رامدال وقال أنه تزوج من فتاة أسبانية، وقال عن زوجته الجديدة إنها صغيرة السن وإنها بطلة من بطلات التزحلق على الجليد (مسكى) وانهما سيذهبان إلى الهند لقضاء شهر العسل، وبدا من رسالته أنه مرتاح لتخلصه من قضية تركة شارلوت هيز فقد أزعجه أقاربها الذين ذكروا له أن لوليتا مجهولة الإقامة وإنني أعيش مع مطلقة عابثة مشهورة، وقال لي أن الذين يستأجرون منزل شارلوت منذ ذهابنا يريدون شراءه وأن من الأفضل أن أخرج لوليتا من مخبئها بسرعة حتى يمكن إتمام معاملة البيع.

نسيت أن أذكر إنني التقطت مع تلك الرسالة رسالة أخرى ظننتها في بادئ الأمر من أم ريتا التي كانت تلاحقني دائما برسائل مختلفة الخطوط تقول فيها إنني وريتا منسجمان انسجاما رائعا وأنه سيكون من الرائع أن أتزوجها.

على كل حال فتحت الرسالة الثانية ذات الخط النسائي التي أخذت تخاطبني بصوت الأمر الواقع:

والدي العزيز:

كيف الحال؟ لقد تزوجت وسأصبح أما قريب وأعتقد إنني سأرزق صبيا، وربما في عيد الميلاد. لقد كان صعبا أن أكتب إليك ولكنني أكاد أجن لأنه ليس لدينا ما يكفي لسداد ديوننا وللخروج من هذه المدينة الحقيرة الخائفة، أن زوجي (ديك) موعود بوظيفة كبيرة في آلاسكا حيث سيعمل وفق اختصاصه الميكانيكي، هذا كل ما اعلمه عن الوظيفة ولكنها تبدو عظيمة، أغفر لي إذا كنت أخفيت عنك حتى الآن عنواني إذ كنت أعرف انك حاقد علي، هذا بالإضافة إلى إنني حريصة على ألا يعلم ديك شيئًا.

أرجوك يا أبي أن ترسل لنا حوالة مالية سريعة، إننا نستطيع أن نتدبر أمرنا بمبلغ أربعمائة أو ثلاثمائة دولار،

أرسل أي مبلغ فهو يساعدنا، ذلك أن المال سيبدأ بالتدفق علينا حالما نصل إلى آلاسكا، ثم انك تستطيع أن تبيع البيت القديم إذا لزم الأمر.

أرجو أن لا ترد على رسالتي فقد قاسيت الكثير من شظف العيش والأحزان، وتقبل تحيات أبنتك الحامل..

لوليتا (مسز ريتشارد شيلر)

(٢٧)

وتنفست الصعداء.. وأسرعت إلى سيارتي وكنت شديد التحسس به فما وصلت إلى أول بقعة خالية حتى أخذت أتمرن على الكيفية التي ستموت بها المسز ريتشارد شيلر (لوليتا سابقًا) موتًا عنيفًا.

لقد وجدت قميصا صوفيا عتيقا في السيارة علقته في أحد الغصون وتخيلته بديلاً للوليتا وتمرنت عليه وإذ كنت أنفذ فيه حكم الإعدام شعرت بضجر مما بدا لي تصلبا في حركة الزناد، فتساءلت إذا كان يجب أن أزيته، ولكنني قررت أنه ليس عندي وقت فائض لهذا الأمر وهكذا عدت إلى السيارة متابعا رحلتي مع مسدسي الأسود تاركًا القميص مثقوبا بالرصاص.

كان تاريخ خطاب لوليتا ١٨ أغسطس، أما المدينة الصادرة عنها الرسالة هي كولمنتن وهي ضاحية صناعية صغيرة تبعد عن نيويورك ٨٠٠ ميل.

كنت طيلة الوقت أفكر، وخلصت من تفكيري إلى أن العفريت الذي خطف لوليتا ليس بائع سيارات، ربما عرفها من بيردسلى يوم انفجرت عجلات دراجتها فتطوع لنقلها

بسيارته إلى منزل معلمة البيانو ومنذ ذلك الحين علق بها وتحايل حتى أنتزعها مني.

ووجدت البيت بعد تفتيش طويل، كان بيتا حقيرا كئيبا تتصاعد من ورائه أصوات المدارق، فأوقت سيارتي و مكثت فيها هادئا مدة دقائق، لقد وصلت إلى نهاية رحلتي، أجل انتهى هذا التجول المحموم يا رفاقي، وجدت نبضي مضطربا، وفي تلك الأثناء نقلت مسدسي إلى جيب بنطلوني.

(٢٨)

ضغطت على زر الباب وقد شعرت باهتزازاته تسري في كل كياني، وطال انتظاري فضغطت مرة أخرى وسمعت حفيفًا يتجه صوب الباب يرافقه عواء مبحوح ثم فتح الباب.

كانت أطول ببوصتين.. وتضع نظارتين وقد عقصت شعرها بشكل جديد وتحلت بحلق جديد.. ما أبسط صورة هذه المخلوقة التي تمثلتها طيلة سنوات ميتة بيدي.. بدت حبلى بشكل مريع هائل.. فقد انتفخ بطنها بحيث بدأت رأسها أصغر مما كان.

وصاحت إذ رأتني بلهجة فيها كل الدهشة والترحيب:

- يا......

وهمست ويدي على قبضة المسدس:

- زوجك في البيت؟

ما كان بوسعي أن أقتلها آنذاك فقد كنت أحبها.. كان حبا من النظرة الأولى والأخيرة. والنظرة الدائمة والنظرة الأبدية. وهتفت بي لوليتا برنة مرحبة: هيا أدخل. تفضل..

قالت ذلك وأزاحت بطنها المكورة لتفسح لي طريقًا فمررت دون الاحتكاك بالوليد المغاف في بطنها.. ولكنني شممت رائحة العرق مصحوبة برائحة علق بجسمها من المطبخ.. فاصطكت أسناني كالأبله، بينما أغلقت الباب ولحقتني هي وبطنها المنتفخ.

وقالت لي وهي تشير بيدها: هو ذا زوجي ديك.

وتطلعت عبر المطبخ إلى الفناء حيث رأيت شابا أسود الشعر ينحني على محرك يصلحه وبجانبه شاب آخر بذراع واحدة يتطلع إليه بينما استطردت لوليتا قائلة: هل أناديه؟

فلما أجبت سلبا بسطت راحتيها، كما تفعل الراقصة الهندية إذ تفتتح الرقص، لتخيرني بين الجلوس على المقعد الهزاز أو السرير.

وجلسنا وامتدت يدي بحذر تلامس في جيبي المسدس الأسود الملفوف بالمنديل فلما اقترحت أن تدعو زوجها من جديد لتعرفني عليه قلت لها:

- ليس هذا ما أريده.. أريد معرفة الآخر.

هنا اختفت نظرة الترحيب المشرقة من وجهها وتغضنت جبهتها كما كانت تفعل في ساعات مراراتها معي:

- أوه..

- أجل أين هو! أجيبي بسرعة؟

فقالت وهي تهز رأسها اضطرابا:

- اسمع.. لا يجب أن تفتح هذا الموضوع.

- كلا بل سأفتحه..

ولما كانت امرأة عاقلة فقد كبحت أعصابها وأخبرتني بأن ديك لا يعلم شيئًا من أمر ماضيها الحافل وأنه يظن إنني أبوها وإنها ابنة عائلة أرستقراطية هربت عمدا من بيتها الوثير المترف، كيما تغسل الأطباق في مطعم وتعيش من كيسها. أنه يصدق كل شيء ولقد صدق كل أكاذيبها فلماذا أريد أزيد من مصائبها بإثارة الماضي وكشف خباياه؟

فقلت لها أن عليها أن تكون منطقية ويجب أن تدرك بأنه يجب أن أعرف ما حدث إذا كانت تتوقع أن تنال المعونة التي جئت لتقديمها وهكذا استطردت ملحا:

- هيا أعطني اسمه.

فلما هزت رأسها سلبا قائلة أن الوقت قد فات للعتاب على ما مضى كما إنني لن أصدق ما لا يصدق، قلت لها أنه يحسن بي إذن أن أذهب.. يكفي إنني رأيتها.

هنا أدركت عنادي فقالت: هل تريد معرفة اسمه حقا أنه.. عند هذا الحد انخفض صوتها وزمت شفتيها وذكرت اسما لابد أن القارئ اللبيب قد حزره من قبل.

خيل لي كذلك إنني عرفت الاسم دون أن أعرفه إطلاقًا!! فلم أصب بدهشة ولا بهزة. وبدأت الأشياء تتسلسل في ذهني بترتيب، بينما أخذت تحدثني عنه وأنا أذوب في بوتقة هذا السلام الذي حل بي أخيرا وأنقذني من التشويش القاتل.

قالت لي أنه كان الرجل الوحيد الذي جنت بحبه، سألتها ألا تحب ديك فقالت: أو ديك أنه حمل وديع، إنما سعيدان معا، ولكنها تعني بالحب شيئًا آخر.

كان في حديثها ما يدل على إنها تعتبرني قد أدركت أن ذلك الرجل الذي اختطفها مني قد عرف كل شعرة من جسمها الجميل، وكانت عيناها تلتمعان ببريق خاطف، تمازجه بعض المرارة، ولكنه ينم عن شغف عميق، أما

علاقتنا نحن الاثنين فكانت تعتبرها كحفلة طويلة ثقيلة الظل مملة.. ملل و صلة تدريب.

ومضت لوليتا تروي لي مزيدا من الأمر:

كيف لم أعرف بأنه قد عرف أمها قبلا؟ لقد كان عمليا صديقًا قديما من أصدقاء العائلة، وأنه داعبها حينذاك وعانقها وقبلها أمام الجميع فأثار غضبها، كانت حينذاك في العاشرة وقبل أن تعرفني بسنتين، قالت لي أنه رآني معها في أحد الفنادق وكان يكتب المسرحية التي لعبت فيها دروا فيما بعد في مدرسة بيردسلى، اجل أنه المؤلف المسرحي كلير الذي جعلتني أظنه امرأة عانس، اجل أن الحياة كذبة بعد أخرى ولو كتب أحد ما قصة حياتها لما استطاع قارئ أن يصدق أحداثها.

عندما وصلت إلى هذا الحد من روايتها تصاعدت جلبة من المطبخ حيث دخل ديك ورفيقه بيل بحثا عن البيرة، فلما لمحاني دخل بيل الصالون فصاحت لوليتا بصوت ثاقب، كان غريبا على أذني وينم مع ما فيه من مرح على حزن دفين.

- ديك هذا ثقيل السمع بسبب إصابة تعرض لها في الحرب.

تصافحت مع ذلك الشاب الطويل الذي جاب لي علبة بيرة مع تحياته وقد بان عليه أنه ظن إنني جئت لأنزل في البيت بعض الوقت، ولذلك فقد بادر مقترحا بأن ينام هو ولوليتا على فراش إضافي يفرشانه في المطبخ، فهززت يدي مستبعد الفكرة وأبلغت لوليتا بأنني ما جئت إلا لزيارة عابرة إذ سأتوجه فروا إلى ريد سبورج لألبي دعوة بعض الأصدقاء المعجبين فنقلت إليه لوليتا النبأ بصراخها الثاقب، ولم يلبث ديك أن أنسحب مبتسما قائلاً أنه سيذهب لإصلاح شيء ما وأنه يظن أن لدينا أخبارا كثيرة يجب أن نتبادلها على انفراد، وتمنى أن يراني قبل أن أذهب.

لوما ذهب نهضت فأجلستني لوليتا من جديد على الكرسي الهزاز فلم أطلق إلا أسألها من جديد:

- إذن لقد خنتماني؟ أين ذهبتما؟ أين هو الآن؟

وأشعلت لي السيجارة رفضتها فأشعلتها لنفسها.. كانت هذه أول مرة أراها تدخن فيها، كان ذلك شيئًا محرما، عندما كانت في عهدتي، ومن خلال سحب الدخان الأزرق اللطيف بدت لي لوليتا وكأنها أمها شارلوت هيز تنضو أكفإنها وتخرج من القبر.

وقطعت لوليتا الصمت المحرج قائلة.

- كلا لم أخنك لقد كان صديقًا قديما. صحيح أن إحدى صديقاتها قد حذرتها منه فهو يحب الفتيات الصغيرات، بل أنه سجن ذات مرة في نيويورك لتحرشه بمراهقة، ولكنه لم يكن مثلي أو مثلها مخلوقًا عاديا إنما كان عبقريا، كل مسرات، قالت لي وأنه انفجر ضاحكًا عندما اعترفت له بحقيقة ما كان يجري بينها وبيني وقال أنه كان يعتقد بان مثل تلك العلاقة الآثمة قائمة بيننا.

قالت لي بأنه أخذها أول مرة إلى مزرعة لا يهم أمرها الآن أحد فقد احترقت واضمحلت، قالت لي أنه اتصل بها ذات مرة وهي تلعب التنس، وألهب خيالها إذ قال لها أنه سيأخذها في سبتمبر إلى هوليود ليعد لها تجربة سينمائية كتبها، ولكن لسوء الحظ لم تأت ظروف مناسبة لتحقيق الفكرة.

- أين هذا الخنزير المحتال الآن؟

- أنه ليس بخنزير، لقد كان رجلا رائعا في كثير من الوجوه ولكن المسكرات والمخدرات هي التي قضت

عليه، وكان يجعل من كل صديقة له عبدة طيعة، قالت إنها وجدت في المزرعة ما لا أستطيع أن أتصوره، أجل لا أستطيع أن أتصور ما كان يفعله هو ورفيقاته في المزرعة، حيث رفضت الاشتراك معهم لأنها كانت تحبه وحده حقا ولذلك فقد قرر طردها.

ما هي تلك الأشياء

- أوه. أشياء فظيعة قذرة، أشياء لا يصدقها الخيال، كان هنالك شابان وفتاتان وثلاثة رجال، وكان هو يطلب من الجميع أن يتخالطوا وهم عرايا تماما، بينما تقوم امرأة عجوز بالتقاط أفلام سينمائية لهم.

وبعد هذا رفضت لوليتا أن تخوض في تفاصيل ما كان يحدث في تلك المزرعة، مشيرة إلى إنها متزوجة وإلى إنها تحمل جنينًا في بطنها.

واستطردت لوليتا تروي لي أمرها:

- لقد فرضت الانغماس معهم، كنت أريد أن أكون له وحده، ولكنه لم يرض فطردني، وبعد ذلك لم يحدث

ما يهم.. فقد وجدت عملا في احد المطاعم حيث ظللت أعمل سنتين ثم التقيت بديك.

سألتها إذا كانت أثناء ذلك قد عادت الاتصال بالآخر فنفت قائلة إنها لم تكن تعرف فعلا أين استقر به الأمر، ولكنها لو أرادت معرفة مقره لما صعب الأمر عليها فهو شهير ومعروف.

لقد عرفت كل ما أردت أن أعرفه فكففت عن سؤالها مزيدا من التفاصيل، إذ لم تكن تخالجني أي نية في تعذيب حبيبتي.

وفي تلك الأثناء تصاعد من المطبخ صوت الراديو في أغنية عن جنون الحياة والأقدار.. فأغمضت لوليتا عينيها وفرجت فمها وألقت برأسها إلى وسادة الديوان.. فبدت كأنها امرأة ملت الحياة وتجاوزت كثيرا سن السابعة عشرة.

تطلعت إليها وتأملتها مليا، كان أعلى بأنني سأموت، وإنني أحبها أكثر من أي شيء رأيته أو تخيلته أو رجوته في هذا العالم.

لم تكن في تلك اللحظة سوى صدى باهت لتلك الحورية التي طالما عانقتها وأنا أهرج فرحا في الماضي.. كانت

زهرة ذابلة، ولكنها لم تزل تحتفظ بشيء من ضوعها وبقطرات من الندى.. وأحمد الله على أن هذا الصدى لم يكن الشيء الذي أحببته وعبدته. ومع ذلك فقد كنت واثقًا من قدرتي على أن أعيدها كما كانت. إنني أقول هذا لأنني أريد الدنيا أن تعرف كم أحب لوليتا.. أجل إنني لا أزال أحب هذه اللوليتا الحامل الشاحبة التي تحمل جنينًا من رجل آخر. ولذا فكرت حينئذ بأننا نستطيع أن نعود إلى ما كنا عليه.. فقلت لها:

- اسمعي.. ربما قد يبدو كلامي في غير مكانه.. ولكن يجب أن أقول ما أقول. أن الحياة قصيرة وليس بين هذا الصالون وسيارتي العتيقة سوى عشرين أو خمس وعشرين خطوة. إنها مسافة قصيرة للغاية فهيا لنجتازها معا.. الآن.. تعالي معي كما أنت. وسنعيش حتى الأبد سعداء.

فقالت لي وقد فتحت عينيها ولملمت ذاتها كحية تتأهب للسع:

- أتعني انك لن تساعدني إلا إذا ذهبت معك إلى فندق؟ أهذا ما تعنيه؟

- كلا.. لقد أسأت فهمي. أنني أريدك أن تتركي ديك وتأتي لتعيش وتموتي معي.. ولتشاركيني كل شيء.

فقالت لي ووجهها يتلون وملامحها تتغضن: أنك مجنون.

- فكري في الأمر.. ليس هناك من شروط.. انك لن تكوني مقيدة بشرط إلا. ولكن لا يهم إنني سأعطيك ما تريدين حتى لو رفضت الذهاب معي.

فلما أبدت شكها ناولتها مظروفًا يحتوي على ٤٠٠ دولار وعلى شيك بمبلغ ثلاثة آلاف وستمائة دولار.

تناولت هديتي المالية بفرح وما لبثت جبهتها أن اصطبغت بالدماء المحتقنة وقالت وهي مبهورة الأنفاس:

- أتعني أنك تعطينا أربعة آلاف دلار؟

غطيت وجهي براحتي وانفجرت باكيا وسكبت تلك اللحظة دموعا لم أسكب من قبل في حياتي دموعا بمثل حرارتها وتركت الدموع تخضب وجنتي وتتقاطر على ذقني ولم أستطع أن أمسك عن البكاء، وعندما أمسكت يدي بإشفاق قلت لها:

- سأموت إذا مستيني.. قولي هل أنت متأكدة من لا تريدين الذهاب معي؟ أليس هناك أمل في أن تأتي؟ أجيبي؟

- كلا. ما من أمل يا عزيزي.

ارتبكت لوليتا عند هذا الحد كأنها كانت تقول لقد حطم هو قلبي أما أنت فقد حطمت حياتي.. ثم استأنفت:

- أنه كرم عظيم منك أن تعطينا كل هذا المبلغ الكبير أنه يسدد كل ديوننا ونستطيع أن نسافر إلى آلاسكا في الأسبوع القادم.. انك تستطيع أن تفهم الحالة، أرجوك، أنني آسفة لأنني خدعتك، ولكن ما حدث قد حدث.

مسحت وجهي وأصابعي من آثار الدموع، بينما كانت تغبر المظروف المالي بابتسامة الشكر.. وأرادت أن تنادي ديك، ولكني قلت لها إنني راحل بعد لحظة ولا أريد أن أراه إطلاقًا.

وما لبثت أن عدت إلى موضوع المال فقلت لها أن هذا المبلغ هو إيجار بيت أمها.

طلبت مني لوليتا أن أبقى فقلت لها إنني مضطر إلى الرحيل.. أجل كان يجب أن أرحل وأن أكشف مقره لإزهاق روحه.

وقامت لتودعني نظرا لأنه ما كان بوسعي أن أتحمل قبلة من شفتيها فقد أخذت أنكفئ إلى الوراء كلما خطت هي وبطنها المتكورة خطوة نحوي.

سألتها مرة أخيرة بصراحة:

- كلمة أخيرة.. هل أنت متأكدة تماما من انك لن تعودي إلى.. لست أعني في الغد أو بعد الغد. إنما أعني يوما ما؟ ألن تأتي يوما ما؟ ألن تعودي لتعيشي معي؟. أني سأخلق لنفسي إلها جديدا وسأشكره بصرخات ثاقبة إذا أعطيتني هذا الأمل المبكر.

فأجابت باسمة: - لا.. لا..

- لو أعطيتني هذا الأمل لغيرت مجرى حياتي كلها.

قلت هذا.. وأنا أشهر مسدسي عليها، كما يتبادر إلى ذهن القارئ الساذج، أجل فما خطر لي ذلك قطعا.

وهتف حبي الأزلي الذي مات يردعني، أقول حبي الذي مات لأنها ميتة وخالدة حسب الاتفاق الرسمي مع ما يدعي بالسلطات القضائية، فلقد اتهمت بأنني قتلتها وأخفيت جثتها، ورضيت بهذه التهمة.

(٢٩)

وذهبت إلى مدينة رامدال لأصفي حساب خاطب لوليتا، ذلك المؤلف المحتال، وفي الطريق توقفت في إحدى القرى للراحة، وكي أستعرض قضيتي من جديد، فرأيت بأقصى مباسطة، ذاتي وحبيبتي، ورأيت مما مر بنا من أحدث كانت حتى ذلك الحين تعود إلى مخيلتي قاتمة.

تذكرت إنني قبل عامين قد أبدلت بهداية من قسيس كاثوليكي ذكي الحادي بالمذهب البروتستنتي بإيمان تسليمي كاثوليكي هو علاج قديم، بما فيه من عنصر الاعتراف والحل من الخطيئة، لفك عقد الإثم في النفس لقد بذل ذلك القسيس كل جهده وعاملني باللاطف فأنا شاكر له، ويالأسف لم أستطع أو أتجاوز عن واقع إنساني بسيط هو أن ما من شيء يستطيع أن ينسي لوليتا الشبق المنحرف الذي عرضتها إليه مهما وجدت في الاعتراف من راحة وجدانية وعزاء روحي. فما لم يثبت لي بأنه من غير المهم إطلاقًا أن تحرم طفلة مراهقة أمريكية هي لوليتا غير من طهارة طفولتها على يد منحرف مهووس.. أجل ما لم يثبت لي ذلك (وأن الحياة الحقيقية بأن تكون أضحوكة لو أمكن إثبات ذلك) فإنني لا

أجد وسيلة تشفيني من شقائي سوى إلقاء اللوم على الأقدار بتلك الطريقة الأعتذارية التي تؤلف فنًا قديما من فنون التحلل من الخطايا.

(٣٠)

ها أنا من جديد أعود لزيارة رامدال، وكان الوقت ظهرا وكل ما في الكون يلتمع ويبدو بجلاء ولقد مررت بالمقبرة وألقيت التحية على قبر شارلوت، ثم مررت بالبيت القديم، حيث علقت عليه لوحة تعرضه للبيع، كان مقفل النوافذ يخيم عليه هدوء البيت.

وبعد أن توقفت برهة قدت السيارة مسرعا إلى الفندق الذي حللت به منذ خمس سنوات، عندما جئت إلى المدينة أول مرة، فقد شعرت بأنني أضيع وقتي بتأملات لا طائل منها.

في الفندق صادفت جمعا من رفيقات شارلوت يتبادلن الوداع المتكاف بعد أن انتهين من مأدبة اجتماعية، ولقد عرفتني منهن أم فليبس المتكاف بعد أن انتهين من مادبة اجتماعية، ولقد عرفتني منهن أم فليبس رفيقة اوليتا فقاربتني بصيحة دهشة وابتسامة مزيفة تتألق بالفضول وبالغمزات

واللمزات (كأنها كانت تتساءل هل صنعت بلوليتا ما صنعه الميكانيكي فرنك لاسال للبالغ من العمر خمسين عاما بالطفلة سالي هورنر البالغة من العمر ١١ عاما، كانت الحادثة فضيحة الموسم عندما جئت إلى رامدال).

وشرحت لها بشيء من المنشأة أنني أعيش في كاليفورنيا وأن لوليتا قد تزوجت من مهندس شاب مرموق، فكان جوابها لا تقر هذه الزيجات المبكرة، وإنها لا يمكن أن تدع ابنتها فليبس البالغة من العمر ١٨ عاما الآن أن.

وقاطعتها مستجوبا:

- بالطبع، ولكن هل أخبرتك فليس رفيقة لوليتا في مخيم البنات، كيف كان ابن المديرة تشارلي هولمز يفسق بالبنات اللواتي تراعهن أمه؟

غابت الابتسامة عن وجهها وصاحت:

- يا للعار لقد قضى هذا الغلام نحبه في كوريا.

وعادت الشمس تسطع والعصافير تزقزق وبدا لي البيت قائما في لجه من الوهج ثم ما لبثت أن أدركت إذ وطأت الأرض التي بدت لي مقلقة بأنني قد أفرطت في تنشيط نفسي بالكحول.

قرعت الجرس فأجابني صمت مطبق خيل إلى أنه يهزأ بي ولكنني لم أيأس، ولما لم يجب احد على طرقاتي دفعت الباب فانفجرت دفتاه كما يحدث في القصص الخرافية.

أغلقت الباب خلفي برفق وشققت طريقي عبر ردهة فسيحة بالغة البشاعة ومن الردهة تسللت إلى غرفة الجلوس المجاورة فلاحظت أقداحا فيها بقايا السهرة وخلصت من منظرها إلى أن صاحب البيت لا يزال نائما في غرفته وهكذا اندفعت صاعدا إلى الطابق الثاني ويدي اليمنى تطبق على مسدسي المتهيئ للانطلاق، وتفقدت غرف منامة فوجدت أن أحدا ما قد نام في واحدة منها الليلة الفائتة وأخذت أتفقد بقية الغرف.

وبينما كنت أتوجه للبحث عنه في الحمام الثالث خرج صاحب الدار منه تاركًا وراءه ذيلاً رفيعا من الماء المتساقط من شعره، وحاولت أن اختبئ في زاوية الممر إلا إنها لم تحمني ولم تخفني تماما، ولم يلبث أن مر بي في منشفته دون أن يعيرني ألتفاتًا ولربما كان السبب في ذلك يرجع إلى أنه لم يلمحني أو حسبني شبحا من أشباح أوهامه التي تلهبها المخدرات التي يتعاطاها على كل حال تابع طريقه كأنما

يسير في نومه منحدرا إلى الطابق الأول، وتبعته إلى الردهة الأمامية حيث رأيته يفتح فمه وباب البيت نصف فتحة ليطل من الباب على الدنيا المشمسة كشخص خال أن أحدا ما قد ناداه، ثم ما لبث أن قفل الباب وعاد متجها إلى غرفة نومه عبر القاعة غير عابئ بالشبح الذي رآه يقف في وسط الدرج إنما اتجه إلى غرفة نومه بكل اطمئنان، أما أنا فقد شعرت بغبطة سماوية لا توصف، فقد كان من النعم العظمى أن أتأمل بمئات النظرات المتعاجية المتسائلة إلى تفاصيل هذا المخلوق تراوحه نغمات الألم والقلق من وجودي وأن أعرف أن هذا الوحش الشبه مخدر الشبه مهووس قد فسق بلوليتا وأغواها، أجل كان ذلك نعمة ولكنها لا تطاق لا..

- هل تذكر فتاة تدعى دولرتس هيز، أعني لوليتا.
- أنت والدها؟ - نعم.
- هراء.. أنت لست أباها، هراء.. لابد انك وكيل إحدى شركات النشر الفرنسية.. لقد ترجموا لي إلى الفرنسية روايتي (كبرياء الجسد).
- لقد كانت ابنتي يا كيلتي، فانا أبوها.

كان كيلتي في حالة نفسية جدية لا يمكن معها لأي شيء أن يدهشه ولكن لا مبالاته لم تكن تامة فقد كان يراوحه قلق يلتمع في عينيه التماعة باهتة "ولكن عينيه عادتا إلى جمود نظراتهما وهو يقول:

- إنني شخصيا مغرم بالأطفال.. وأن الآباء هم دائما من بين أعز أصدقائي..

قال ذلك متذمرا بلهجة متغطرسة وأردف قائلاً:

- أردت أن أدخن سيجارة، سأموت إذ لم أدخن.

- انك ستموت على كل حال.

- أوه كفى مزاحا، لقد بدأت تضايقني. ماذا تريد؟ هل أنت مرتشي؟ هل تريد أن تشرب شيئًا تعال إلى البار فلنشرب كأسا.

وقطع كيلتي كلامه فقد رأى المسدس الأسود مبطوحا على راحتي كأنما كنت أقدمه إليه، وقال لي وهو يقلد لهجة الأشرار في الأفلام السينمائية:

- هذا مسدس بديع، ماذا تريد مقابله؟

رفع يده فضربتها بيدي ولكنه استطاع أن يقلب علي طاولة منخفضة علبة أنيقة تناثرت منها السيجارات فقال فرحا:

- ها هي السيجارات، والآن نحن بحاجة إلى كبريت.
- اسمع يا كيلتي، أريدك أن تعيرني كل انتباهك، أنك ستموت بعد لحظة، وقبل ذلك سيكون ما تبقى لك من الوقت حالة جنونية دائمة لقد دخنت سيجارتك الأخيرة بالأمس، أعرني وحاول أن تفهم ما سيجري لك.

فقال وهو يجذب أنفاسا من سيجارة غير مشتعلة:

صوبت مسدسي نحو قدمه وضغطت على الزناد فتطلعت إلى المسدس ثم إلى قدمه ولكن الرصاصة لم تنطلق فبذلت مجهودا ثانيا وهكذا أنطلقت الرصاصة وثقبت السجادة السميكة، ومسني شعور جنوني بأن الرصاصة لم تستقر في موضعها وإنها ستقفز من جديد إلى الفضاء.

وقال لي كيلتي بغير انفعال كبير:

- هل فهمت ما أعنيه، يجب أن تكون أكثر حذرا، هيا أعطني هذه اللعبة.

ومد جسمه يحاول أخذ المسدس ولكنني دفعته إلى مقعده والغبطة تغمرني فقد آن الأوان لإهلاك عدوي ومع ذلك فقد كنت حريصا على أن اجعله يدرك بأنه سيلقي حتفه على يدي وهكذا قلت له.

- هيا ركز أفكارك على لوليتا هيز التي أختطفتها.

فصاح: إنني لأم أخطفها، انك مخطئ تماما إنما أنقذتها من فاسق متوحش، هيا أرني بطاقتك البوليسية بدلا من تصويب نارك إلى قدمي أيها القرد، أين هي شارتك البوليسية؟ إنني لست مسئولا عن أعمال اغتصاب الفتيات التي يقوم بها غيري، أنه سخف أن أتهم باغتصاب لوليتا، لقد ذهبت معي في جولة كانت سخيفة ثقيلة على نفسي ثم انك استعدت لوليتا أليس كذلك؟ هيا لنشرب شيئًا في البار.

وهناك سألته ببرود إذا كان يريد أن يموت واقفًا أم جالسا فقال:

آه دعني أفكر، ليس هذا بسؤال هين، وبالمناسبة لقد ارتكبت خطيئة بدعوة لوليتا إلى مرافقتي وصدقني إنني لم

أسر برفقة ابنتك فأنا عمليا رجل عنيد إذا أردت الحقيقة، ومع ذلك فقد أمضت معي أجازة بديعة وقابلت أناسا ممتازين بارزين، وفجأة انقض علي قطار المسدس إلى ما تحت الخزانة ولحسن الحظ كان كيلتي ضعيف البنية فلم أجد صعوبة في دفعه من جديد إلى مقعده.

وسألني وهو ينفخ ويشخر وقد كتف ساعديه:

- كف عن هذا العبث بالحياة والموت، إنني مؤلف مسرحي كتبت التمثيلية التراجيدية والدراماتيكية والكوميدية وإنني كاتب المشكلة عمليا ونتفق على تسويتها ماديا.

واقترحت عليه أن يقرأ بذاته حكم الإعدام الصادر عليه مني وناولته ورقة مطبوعة بالآلة الكاتبة تحتوي على الحكم مكتوبا بعبارات شعرية، فقد أردت أن تكون عدالتي شعرية وقد جاء فيها.

وبما انك قد استثمرت ضعف خاطئة، ونظراً لأنك استغللت حراجة مراكزي وأنا في وضع لا حول لي ولا قوة، وفي وقت كنت فيه ألتمس أرق الرجاء وأنا مقصوص

الجناحين أحلم بالزواج في مدينة جبلية ساحرة مع حبيبتي الصغيرة لوليتا.

وبما انك قد استغللت براءتها وخدعتني وخدعتها وبما انك عرقلت خلاص زوجتي باتحاد روحي معها ولأنك أغويتها وهي في سن المراهقة حيث يدخل الصغار مرحلة تجارب الخطأ والصواب في الحياة، وبما أنك أغويتها وهي لم تزل طفلة لاهية ونظرا لأنك سرقتها من وصيها العاجزة تاركًا إياه في أشد حالات اليأس والقنوط والقلق، بما انك أخذت تلك الدمية الجميلة وتلاعبت بها ثم حطمتها وألقيتها إلى قارعة الطريق ونظرا لأنك سببت لي ما لا يطيقه إنسان من العذاب والقهر.. نظرا لكل ما جنته يداك يجب أن تموت.

قرأ هذا الحكم الشعري وهو يعلق بين الحين والآخر على جمال أسلوبه فلما انتهى ناولني الورقة قائلا:

- الحق يقال أنها قصيدة ممتازة.. أنها أحسن ما قرأت لك من قصائد.

وهنا سألته من جديد جادا إذا كان له ما يقوله جديا قبل أن يموت سألته بعد أن أعدت مسدسي بحيث ينطلق

الرصاص عند أول ضغط ولهذا فقد تطلع إليه وأطلق آهة عالية وقال:

- والآن يكفي يا هذا، انك ثمل وأنا مريض دعنا نرجئ الأمر فإنني بحاجة إلى الراحة والهدوء قبل أن يأتي أصدقائي لأخذي إلى الصيد الحقيقة أن مهزلة تصويب المسدس أصبحت مزعجة مضجرة، إننا نحن الاثنين خبيران بالعالم.. بالجنس. بالشعر المنثور بالصناعة الأدبية وبالاجتماعيات، فإذا كنت تحمل لي في صدرك غلا فإنني مستعد لأن أدفع اك غرامة تزيل غلك بل إنني مستعد من اجل ذلك لمبارزتك وفق تقاليد الفروسية القديمة وأترك اك اختيار سلاح المبارزة ومكانها ربيبتك هي التي لحقت بي بلى هي التي جعلتني أنقلها إلى ملاذ أسعد وإلى بيت أهنأ ليس إلى هذا البيت مع ذلك مريح فسيح وأقترح عليك أن تحل فيه إذ أنوى قضاء زمن طويل في بريطانيا أو فلورنسا أو غيرهما أجل خذ البيت أسكته مجانًا ولكن بشرط أن

تكف عن تصويب هذا المسدس البشع إلى وجهي وضغطت على الزناد فانطلقت أول رصاصة ولكنها أصابت هذه المرة شيئًا صلبا، لقد أصابت الكرسي الهزاز فأخذ يلوح بها جزعا ثم اندفع إلى كالبرق واتجه إلى غرفة الموسيقى واندفع يعزف على البيانو بيده الدامية أنغاما هستيريا مرتجة، وصوت زفيره يملأ جو الغرفة، ووقفت أرقبه متسليا محاولا أن أحفظ تلك الأنغام المحمومة، وفجأة رأيته يحاول أن يفتح بقدمه باب خزانة قرب البيانو، وهكذا فإن رصاصتي التالية أصابته في مكان ما من جانبه فنهض قافزا إلى الأعلى، كنمر في سيرك ككابوس من كوابيسي ارتفع كما لو كان يريد التعلق بحبال الهواء، ثم هبط على قدميه وعاد مرة أخرى رجلا عاديا ما لبث أن لجأ إلى القاعة.

إنني من هذه الزنزانة أرى نفسي وأنا أتبعه عبر القاعة بقفزات كراقص الباليه وقد قفزتها ليس فقط من أجل أن

ألحق به بل كذلك من أجل أن أسبقه وأتخطاه، ذلك لأن باب القاعة لم يكن مقفلاً كما يجب وإذ رآني أخذ يسير بخطوات وئيدة رزينة ويبدأ يصعد الدرج فغيرت وضعي إلا إنني لم ألحقه بل اكتفيت بان أطلقت عليه ثلاث أو أربع رصاصات في تتابع سريع كادت نصيبه بجرح نازف كل مرة وكان وجهه ينقبض انقباضة مألوفة بشعة مضحكة، كلما أصابته إحدى الرصاصات كما لو كان مهرجا يبالغ في إظهار الألم وكان يغلق عينيه نصف اغلاقة ويرتعد ويصدر آهة متخشنة كما لو كنت أدغدغه.

ثم بدأ يقول بلغة سليمة وبلهجة البريطانيين كما أصبته برصاصة عمياء في جانب من جسده الدامي:

وأخذ صوته يضعف ويخبو إذ وصل إلى قمة السلم ومع ذلك فقد ظل يسير رغم الرصاصات التي ملأت بها جسده الدامي وبدا لي كأن رصاصاتي تحقن ذلك المسكين بحقن من الطاقة، كما لو كانت هي محقونة بإكسير الحياة وكان جلده على الموت مثار قرفي واشمئزازي وإشفاقي.

حشوت المسدس من جديد بيدين سوداوين مضرجتين بالدم فلقد لمست شيئًا ضخمه بنجيعه الكثيف، ثم تبعته إلى

الطابق الثاني وراح ينتقل من غرفة إلى غرفة والدماء تنزف منه وتضفي عليه ملهبة دامية، بينما كان يحاول أن يجد نافذة مفتوحة يهرب عبرها فلما رآني أخذ يهز رأسه محاولاً ثنى عن قتله فصوبت مسدسي إلى رأسه ففر إلى غرفة النوم وينبوع من الدم ينفجر من المكان الذي كان يدمي بأذنه اليسرى.

كان ما رأيته يشبه منظرا في كابوس.. فعلى الرغم من الدم الذي يجلله ويتقاطر منه وعلى الرغم من جراحاته فقد رأيته.. رأيت تلك العجينة الدامية.. رأيته يدلف بعظمة إلى سريره كما لو كان في أتم عافية.

ولما أسدل الملاءة على جسمه صوبت مسدسي من قرب وأخذت أمطره بالرصاص، حيثما تكور جسده فاضطجع مستويا وخرج الزبد ملونًا بالدم وتعاقد حول شفتيه.. ثم ما لبث أن أطلق نفثة دامية كالبالون ثم تلاشت..

ربما كنت قد أضعت في ذلك الحين صلتي مع الواقع، ولكن لثانية أو ثانيتين.. ربما جننت في تلك البرهة ولا أقول هذا الدفاع عن نفسي، إنني أريد أن أؤكد مسئوليتي عن كل نقطة دم سالت منه وخرجت مع ريقه من فمه..

نظرت إلى يدي فلم أجدهما أحسن حالاً من يديه المضرجتين فغسلتما في الحمام المجاور بأحسن استطعت. وإذ فعلت ذلك أصبحت في وضع أستطيع معه مغادرة المنزل، وإذ أخذت أنزل الدرج دهشت عندما اكتشفت أن ما توهمته في أذني كان في الحقيقة ألحانًا موسيقية تتصاعد من راديو الصالون مختلطة بأصوات بعض الأشخاص.

وبالفعل وجدت عددا من الأشخاص الذين بدا عليهم أنهم وصلوا لتوهم وكانوا يبعون الشراب.. وميزت رجلا بدينًا في مقعد عريض وفتاتين جميلتين بجدائل سوداء فاحمة وبشرة شاحبة.. كانتا شقيقتين بلا ريب وكانتا تجلسان جنبا لجنب على الأريكة، ثم رأيت رجلاً مشرق الوجه يحمل قدحين من للبار.

وقفت في مدخل الصالون وقلت للجميع:

- لقد قتلت لتوي كلير كيلتي.

فأجابني مشرق الوجه: حسنًا فعلت:

ومضى يقدم قدحا إلى الفتاة الكبرى بينما لاحظ الرجل البدين قائلا:

- كان يجب أن يقتله أحد ما.. وقبل زمن طويل.

وهنا سمعت صوتًا من وراء حاجز للبار فتطلعت ورأيت شقراء تهتف:

- ماذا يقول أنه قتل كيلتي.

وعلق على الحديث رجل كان يقعد بجانب خزانة الاسطوانات:

- حسنًا.. أعتقد أنه كان علينا بالذات أن نقتله ذات يوم.. وعلى كل حال لا أصدق أنه قتل. ولست مستعدا لانتظاره أكثر وإذا كان يريد الذهاب للصيد فعليه أن ينزل في الحال.

وقال الرجل البدين من مقعده:

- ليعط أحدكم هذا الرجل قدحا.

وفجأة توقفت الموسيقى لحظة وسمعنا ضجة من أعلى السلم فتطلعنا متجهين إلى مصدرها لنرى أن كيلتي قد استطاع أن يزحف إلى عتبة الدرج، ولنراه يترنح متخبط ليقع صريعا، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة.

وصاح رجل بجانبي:

- أجل يا كيلتي، إنني أعتقد أنه لا يزال.

ولم أسمع بقية كلامه لقد طغت عليه الموسيقى إلا إنني قلت لنفسي:

- هذه هي نهاية المسرحية التي وضعتها لإنهاء حياة كيلتي.

فظللت أقود سيارتي بلا وعي مرتكبا بذلك قواعد وآداب المرور.

ولكن استمراري في المخالفات ما لبث أن عقد الأمور وهكذا وجدت سيارتين تعترضان سبيل سيارتي بشكل أجبرني على التوقف ولكني استطعت أن أنفلت ونجحت في الإنكفاء عائدا إلى الطريق الريفي ثم اضطررت إلى التوقف بعد رجتين أو ثلاث فقد اصطدمت بقطيع من البقر.

وجاءت بعد ذلك الأيدي تسحبني من السيارة حيث كنت في الواقع أتوق إلى أن أسلم نفسي لمن يريد دون الإتيان بأي مقاومة ودون التعاون مع من يجرني.

وإذ كانوا ينقلونني إلى عربة الإسعاف أرخيت مفاصلي متمددا بهذه العناية في حملي من رجال البوليس والإسعاف.. وفي تلك الأثناء أخذت أسمع هديرا أعاد إلى الذاكرة ذلك الهدير الذي سمعته ذات يوم شعرت فيه بالغثيان وأنا أقود

السيارة بحثًا عن لوليتا الهاربة فانحدرت إلى طريق جانبي بأمل أن يحسن الهواء النقي من حالي وتبينت هاوية سحيقة أوقفت سيارتي قربها وجالدت إغراء قويا بأن أندفع بسيارتي إلى أحضانها.

أن هذا الهدير الذي سمعته لم يكن سوى تغريد الطفلات المراهقات وهن يلعبن ويصحن.. لم يكن سوى ذلك ليس إلا.

***

هذه قصتي كلها.. لقد أعدت قراءتها فوجدت فيها طعما من المرارة ووجدت فيها النهاية الأليمة لحياتي. نهاية رجل اغتصب فتاة في الثانية عشر من عمرها وقتل نفس حرم الله قتلها. لا شك أن القاضي سوف يحكم علي بالإعدام.. أو بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وفي سردي لهذه القصة حاولت جهدي أن أخفي ما يؤذي الناس وجربت عدة أسماء مستعارة لنفسي قبل أن يقع اختياري على اسم همبرت همبرت.

وعندما بدأت أصل ستة وخمسين يوما في كتابة لوليتا في هذا الإطار من النبضات الوجدانية وفي جو من العزلة

والانفراد فكرت في استخدام هذه القصة أثناء محاكمتي ولكن ليس لإنقاذ رأسي إنما بالطبع لإنقاذ روحي وخلاصها.

غير إنني لما وصلت إلى منتصف القصة أدركت بأنني لم أستطع أن أخلق بيانيا لوليتا كما كانت في حياتها.

لأسباب قد تبدو أكثر بديهية مما هي في الواقع أعارض في عقوبة الإعدام معارضة فكرية لا شك أن القاضي الذي سيفصل في قضيتي يشاركني إياها، ولو إنني قاضيت نفسي وحكمت على همبرت همبرت بالسجن ٣٥ عاما بجريمة الاغتصاب وأعلنت عدم مسئوليته عن التهم الباقية.

ولما كانت لوليتا خليقة بأن تعمر أكثر مني حتى لو حكمت بتلك المدة ولم يحكم علي بالإعدام، فإنني اتخذت الإجراءات القضائية التي تقضي إلى عدم نشر المذكرات ما دامت لوليتا على قيد الحياة.

وهكذا فعندما يقرأ القارئ هذه القصة فإن كلينا (لوليتا وأنا) سنكون في عالم الأموات..

(تمت)